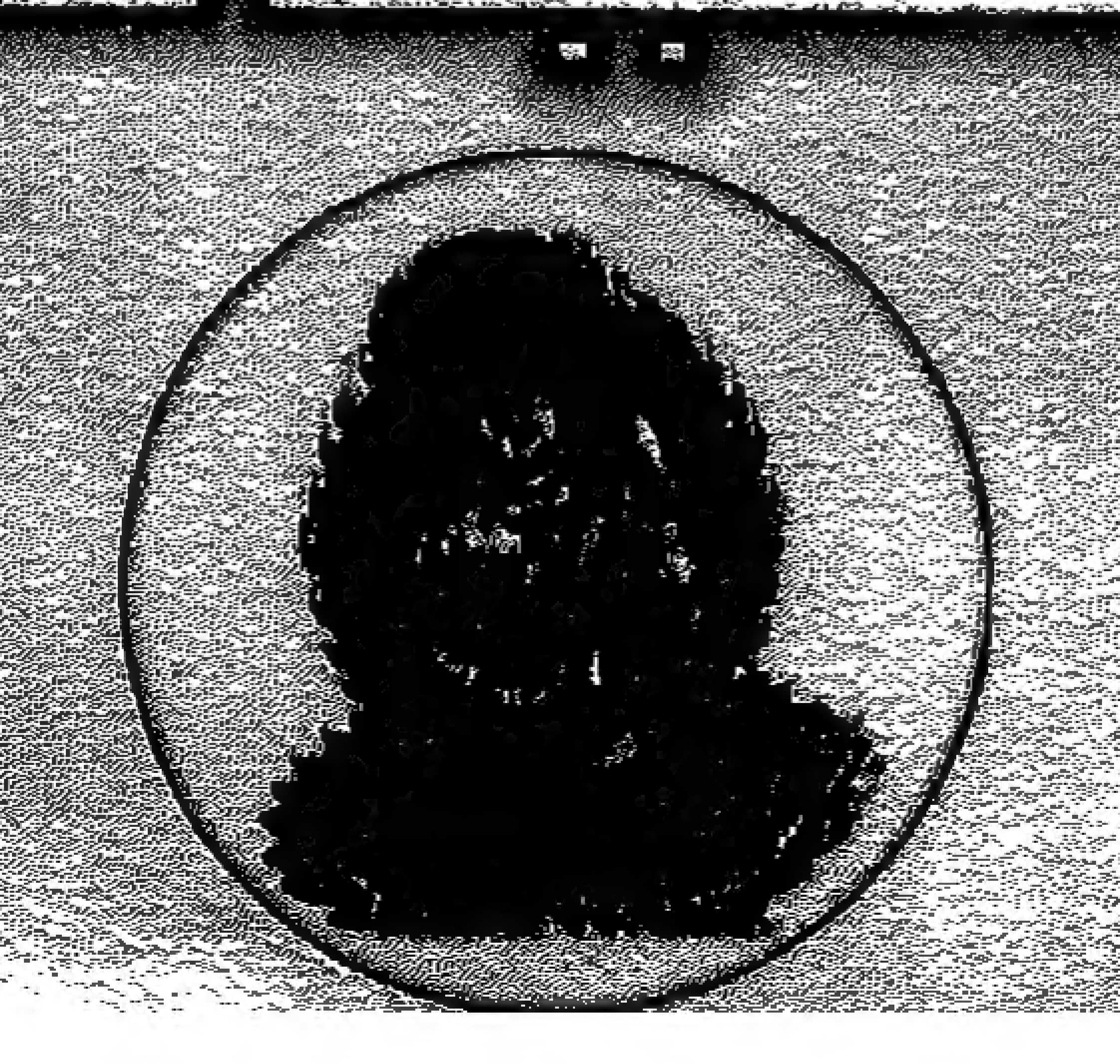


عادل حمودة

رحلة إلى عين الشمس

دولة يوم القيامة





عادل حمودة

دولة يوم القيامة

رحلة ساخنة إلى عين شمس

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبد الواحد

١

دولة يوم القيامة
رحلة ساخنة إلى عين الشمس

حب هذا الوطن قنديل مشتعل، علقته أصابع الله في قلوبنا.. قنديل أروع من ألف شمس، وأكبر وأدفأ من ألف شمس، لأنه اشتعال دائم لا يعرف كسوفا ولا خسوفا.

وعندما أسافر أحمل هذا القنديل معي.. أضعه فى عينىّ لأرى فكرة.. وأضعه فى قلمى لأسجل خبرة.. وأضعه فى صدرى لأستدعى نسمة.. نسمة حلوة، طرية ناعمة، طيبة، تبدد وحشة الغربة.

كان هذا القنديل معى فى اليابان، البلد الآسيوى البعيد الذى لا يكف عن احتكاك جبهته بجبهة الشمس.. كان معى فى المطار نشرب آخر فنجان قهوة «سادة» قبل الرحيل.

وعلى الطائرة وأنا أقرأ أشهر كتاب من نوعه: «اليابانيون» للسفير الأمريكى الأسبق فى طوكيو «أدوين رايشاور».. وترجمته بسحر ورشاقة ليلى الجبالى.. وكان معى فى الزيارات السياسية والسياحية فى المدن والمؤسسات والوزارات.. دخل معى المعابد والمطاعم والمصانع ومحطات المترو.. تفرجنا معا على الأسواق.. ونبهنى لجنون الأسعار.. وعندما اقتربنا من أحياء وعلب الليل الخفية والخلفية المخيفة حذرنى من التهور والفضول.. وكاد أن ينجح.. لكنه شجعنى على البدء فى تعلم أصول وطقوس الشاى فى مدرسة خاصة جداً.. مكلفة جدا.. تنتهى برشاقة الروح وبعلقة مؤلمة هى شرب عصير «ملوخية» خضراء بدون سكر.. لا أقول عصير برسيم.. وشجعنى على ارتداء الكومونو عند النوم واحترام المواعيدوعدم النوم ظهرا.. شجعنى أن أكون يابانيا بعض الوقت، ففقدت خمسة كيلو جرامات من وزنى فى حوالى أسبوع فقط.

وطوال الرحلة لم نتوقف عن الجدل والحوار والنقاش المريح.. من هم هؤلاء اليابانيون؟.. ماسرهم؟.. ماخصائصهم؟.. كيف فرضوا أنفسهم علينا.. فى حجرة النوم التليفزيون يابانى.. فى المطبخ الأجهزة يابانية.. فى المكتب الكومبيوتر يابانى.. فى الشارع السيارة يابانية.. أشياء كثيرة من التى

نستعملها من عندهم.. فكيف نجحوا فى ذلك؟.. كيف حققوا المعجزة وناقسوا أوروبا وتجاوزوها.. وحاربوا الولايات المتحدة تجاريا وهزموها.. كيف انتقلوا من دولة فقيرة جائعة محطمة، تفتش عن الديدان فى الأرض لتأكلها، وتقع فى قاع الدنيا، إلى دولة غنية، متقدمة، يتمتع شعبها بأعلى مستويات المعيشة، ونجحت فى أن تصبح على «وش» الدنيا؟

إننا نتحدث عن المعرفة ولا نسعى إليها، ونتحدث عن عصر المعلومات ولا ندخله، وتنفر عروقنا عندما نتحدث عن لغة الأرقام، ولا نتكلمها، ولا نحصل عليها.. إن الأرقام التى حصلت عليها بسهولة تجعل الصورة أكثر وضوحا.. وتجعل علامات الاستفهام أكثر صعوبة.. الأرقام تجعلنا نهبط مباشرة دون مطبات هوائية مزعجة.

اليابان مجموعة من الجزر، ٣٩٢٢ جزيرة.. منها جزر فى حجم الكف.. وفى حجم الجزرة.. «وجزر» فى حجم الفيل.. لكن معظم اليابانيين يعيش فى أربع جزر رئيسية هى هوكيدو، وهونشو، وشيكوكو، وكيوتشو.. لا نزال نتذكر ذلك من كتب الجغرافيا المدرسية.. ومساحة اليابان بالضبط ٢٧٧ ألف كيلو متر مربع.. مثل مساحة كاليفورنيا.. وثلث مساحة مصر التى تزيد على المليون كيلو متر مربع.. وحوالى ٣ .ر٪ من مساحة العالم.. والأسوا أن ٧٣٪ من مساحة اليابان جبال.. والباقى مساحة ضيقة جدا.. أقل من مساحة منطقة قناة السويس بما حولها.. وأقل من مساحة الوجه القبلى.. وعلى هذه الأرض التى أصبحت مثل اتوبيس مزدحم بالركاب يعيش ١٢٥ مليون يابانى، يتنفسون ويأكلون، ويشربون.. ويسيطرون على جزء كبير لا

يستهان به من اقتصاد العالم.. وفى ثلاث مدن متقاربة هى طوكيو وأوزاكا وتوجويا يعيش نصف اليابانيين (حوالى ٤٦ ٪).. ازدحام فى كل شيء.. فى المبانى والشوارع ومحطات المترو ولافتات النيون الملون التى تحول الليل إلى قاعة رقص.. وهناك أعلى معدل لكثافة البشر فى العالم.. حوالى ٣٣٠ فى الكيلو متر المربع.. إنها مجرد بقع هزيلة على سطح المحيط الهادى الواسع الضخم.. طفح صخرى على مياهه.. قزم بالنسبة لأكبر الدول عليه الصين والاتحاد السوفيتى.. وطبعا بالنسبة للولايات المتحدة وكندا المواجهتين لها عبر المحيط الهادى أيضا.

واليابانيون أكثر من ذلك فقراء وبالطبيعة.. الطبيعية الجميلة، ساحرة.. لكنها مفلسة.. فلا ذهب أصفر أو أسود.. لا معادن ولا مناجم ولا مواد خام.. لاثروات فجائية تهبط عليهم من السماء.. أو تتفجر لهم من تحت الأرض تجعلهم أغنى الأغنياء بينما هم فى سبات عميق، يرتفع شخيرهم، ويسعدهم جهلهم.. لذلك لا يؤمنون بخرافة علاء الدين ومصباحه السحرى.. وعندما صدرت هوليوود فيلم الكرتون المقتبس من هذه الخرافة التى اخترعناها نحن فى دستورنا الدائم «ألف ليلة وليلة» لم يفهموا الحدوتة ولم يستوعبوها .. وانصرف الأطفال إلى ألعابهم المفضلة.. الفيديو جيم.. وهم لا يؤمنون بتعاويذنا التى تصر على تحويل التراب إلى ذهب.. والفحم إلى ماس.. والبوصة إلى عروسة.. والصدأ إلى ثراء.. وإن كانوا قد نجحوا فى ذلك بالعلم والصبر والعمل والجدية والأمانة والدقة والقسوة والنفس الطويل .. وهذه معادن ومواد خام لا نعرفها.. وتعاويذ لا نتعامل معها لأنها لم تُذكر فى ألف ليلة وليلة.. كتابنا المقدس وقاموسنا الإنسانى.

والطبيعة لم تكن بخيلة معهم فقط.. بل كانت سخيفة ومجرمة ومتغطرسة وقاتلة أيضاً.. إن الطبيعة فى اليابان لا تكف عن إظهار الوجه الشرس والعين الحمراء لهم.. زلازل مدمرة، تسحق، وتهرس، وتعجن.. ولايزال اليابانيون يحتفظون بصور زلزال أول سبتمبر عام ١٩٢٣ الذى ترك وراءه العاصمة طوكيو وميناءها يوكوهاما وقد سويتا بالأرض تماما، بخلاف ١٣٠ ألف قتيل.. وهناك اعتقاد شعبى بأن اليابان ستتعرض لزلزال مدمر كل ٦٠ سنة.. وهم ينتظرون ذلك كل يوم.. وكل لحظة.. ثم.. البراكين التى فى حالة وعيد دائم، صامت.. إن عددها كثير.. لكن الذى لايزال حيا منها يصل إلى ٥٠ بركانا.. وأكبرها وأخطرها وأكثرها لهيبا بركان «آزاما» الذى أغرق مئات الأميال المربعة وسط مونشو فى بحر من النيران الغاضبة الصاخبة التى مدت ألسنتها مئات الأمتار.. ثم .. «التيفون» .. التى تخرج فى شكل أعاصير مدمرة من المياه إلى الشواطىء وتحطم كل شيء .. وموعد «التيفون» أواخر الصيف دائما.. لكن شاء حظى أن أراه فى رحلتى التى كانت فى بداية الصيف.. أن هذا يحدث نادرا.. لكنه جرأة الطبيعة التى أرادت أن تدلل لى عمليا وبصورة ملموسة كيف يعانى من قسوتها اليابانيون.. ومع ذلك هم يحبونها .. لكنه فى الحقيقة حب من طرف واحد..

إن أعراض ومظاهر يوم القيامة موجودة دائما فى اليابان.. نحن نتحدث عنها وهم يعيشونها.. نحن نفرط فى تخيلها وهم يتعاملون ويتكيفون معها.. إنها عقلية «التيفون» عقلية قدرية دعمتها الكوارث الطبيعية أضفت عدم الأمان، لكنها نشطت غريزة البقاء، وموهبة إعادة البناء.. فى ثوان تهدم

الطبيعة ما بنوه فى سنوات.. وربما فى قرون.. لكنهم مثل النمل يعيد البناء.. بل.. أكثر من ذلك يعبدون الشمس.. ويغنون للقمر.. ويسجدون للجبال.. ويعتبرون كل ما فعلته الطبيعة بهم مجرد كدمة صغيرة.

فى هذه الأرض الضيقة.. المعدمة.. فى هذه الطبيعة الكافرة.. المؤلمة، يعيشون.. هم ضعف عددنا.. وأضعاف أضعاف عملنا ودخلنا وأعمارنا.. فمتوسط العمر أكثر من ٧٦ سنة للرجل وأكثر من ٨٢ سنة للمرأة.. كبار السن يمثلون حوالى ١٢ ٪ من السكان.. وستزيد النسبة إلى ٢٠ ٪ فى سنة ٢٠١٠ والسبب ارتفاع مستوى المعيشة والعلاج والترف والرياضة.. ثم إن الأجيال الجديدة لم تعد تؤمن بكثرة الإنجاب.. طفلان على الأكثر.. وهى مشكلة تهدد حيوية المجتمع وجرأته.. فالشباب ينكمش والشيوخ يتمددون.

واليابانيون ينتجون ١٥ ٪ مما ينتجه العالم، مع أنهم ٢٫٣ ٪ من حجم السكان.. ومتوسط الدخل من ٣٠ إلى ٦٠ ألف دولار فى العام.. لكنهم يدخرون أكثر من نصف دخلهم.. أعلى معدل ادخار فى تاريخ الشعوب.. يدخرون لتنمية بلادهم ولمواجهة غدر الطبيعة.. فهم الأغنياء الجدد الذين لم ينسوا أيام الفقر.. وهم تعبوا فى الحصول على المال، ولا يجوز إنفاقه وإهداره بسفه كما نفعل.. فنحن فقراء مدينون نتصرف كالأثرياء «فقر وعنطزة» لا نمد أرجلنا على قدر لحافنا.. لذلك فنحن عرايا مكشوفون.. وميزانية حكومتنا أيضا.

وهناك حوالى ٧ ملايين مكتب وشركة ومصنع بعضها أغنى من نصف دول العالم الثالث.. وحجم المبيعات فى السوق ٥٦١٠٣ مليارات

دولار.. وحجم الاستيراد حوالى ٢٠٠ مليار دولار.. والتصدير حجمه مثل الديناصور بالنسبة لحجم الاستيراد.. وهم يعملون بجد ٨٫٨ ساعة فى اليوم.. ويخطفون فى منتصف النهار وجبة خفيفة.. والمرأة تعمل أقل: ٦٫٩ ساعة لأنها تعمل فى البيت وفى تربية الأطفال، وتنتظر الزوج أيضا.. و٤٠٪ من قوة العمل فالمرأة لم تعد دمية مطاطية فى يد الرجل (أو أبن البلد، الساموراى، الحمش الذى لا يمشى وهو ينفش ريشة..، يعنفها فتغنى.. يزجرها فتسكت.. وساعة العمل عندهم بمائة مما نحسب، ومما نعمل ونفعل.. ثم حقهم حقهم أن ينعموا بالرفاهية.. فهم لم يحصلوا على أموالهم بالتسول أو المعونات.. من من أن يستمتعوا بالطعام والسهر والزهور والعطور والملابس الأنيقة والانحناء والأعجاب وتبادل الهدايا ..ان هناك مليونى حامل ..بمعدل ٨٠شخصا لكل محل .. منها ٩٠ ألف فيها كل المأكولات ومشروبات الدنيا من الكافيار إلى الملوخية.. وهناك ٢٠ ألف محل للهدايا.. و١٥ ألف محل لعب أطفال.. و٢٦ ألف مكان لبيع الزهور.. هذه الأرقام اخترتها بعناية لأنها تحدد مستوى المعيشة الذى وصل للسماء التى لاتكف عن المطر فى الصيف.. والبرودة فى الشتاء.. والغضب فى كل الفصول.

إن الدخل لم يعد المستوى الوحيد المناسب للقياس.. لابد من معرفة نصيب الفرد من الصحف والكتب والزهور ومحطات التليفزيون والسياحة وتناول الطعام خارج البيت.. وبهذه المقاييس الجديدة تكون اليابان فوق الجميع.. أما الولايات المتحدة وسويسرا فهما تحاولان الاقتراب منها.

فمن هم اليابانيون الذين أصبحوا من لا شيء.. كل شيء؟.. كيف كنسوا العنكبوت من رأس الغرب الذى كان يعتبر تخلف الشرق قضاء وقدرا لا يمكن الفرار منه؟.. فالشرق شرق.. بخور وخرافات وفقر وتخلف.. والغرب غرب.. جرأة واقتحام وعلم وتطور.. كيف أجبروا العالم على النظر إلى الشرق نظرة جديدة، مهيبة محترمة؟.. وهل يمكن أن نشارك العالم فى شعاره الذى بدأ يرتفع.. شعار أنظر إلى الشرق.. Look East الذى يبدو أنه لم يصلنا بعد.. وربما لا نريده أن يصل.. وربما وصل ولايزال فى قرية البضائع فى المطار لم نفرج عنه بعد.. والأدق أننا لانزال نعبد الغرب.. رقبتنا تصلبت فى اتجاهه.. ومستعدون للموت عشقا على بياض بشرته. وصفار شعره، وخضرة عينيه.. لانزال نحبس أنفسنا فى أفكاره وتجاربه.. مع أننا كنا «عزبة» استعمارية له.. وقد حررنا أرضنا.. لكننا لم نحرر عقولنا وضمائرنا وأفكارنا وثقافتنا وحضارتنا منه.. ثم بصراحة أكثر لا نريد أن نصدق أن أولئك الأسيويين الصفر الذين ينتمون إلى الجنوب يمكن أن يخرجوا من الفقر.. منتهى الحرج لنا!

إننى لا أريد أن أستبدل اليابان بأمريكا.. ولا أريد أن نحرق السيارات الألمانية لنركب السيارات الكورية. . ولا أريد أن أقنعكم بالشاى الأخضر على حساب الشاى الأحمر. ولا أريد أن نكف عن قراءة «التايم» و«التايمز» لنقرأ «أساهى» و«ميورى» أكبر صحيفتين فى طوكيو.. ابدا.. أبداً فانا لست مجنونا، أرفع يدى فى الظلام وأرسم فى الفراغ خطوطا ليست لها نهايات، و لا تعنى شيئا.. أنا أريد أن نوسع الأفق ونتعامل وننفض الكسل ونستفيد

من تجارب شعوب مثلنا كانت مثلنا.. بل إننا أعمق حضارة منها، أكثر ثراءً منها والطبيعة أرحم علينا منها.. فما نملكه نحن فى مصر من موارد أكثر مما تملكه اليابان.. لكنها تقدمت ونحن تراجعنا.. أو تجمدنا.. أو نمشى كالسلحفاة فى عصر «السوفت وير» فى عصر انتقال المعلومات عبر ملايين الأمتار فى نفس اللحظة.. هى قفزت إلى السماء، ونحن بقينا فى كهف رطب مظلم يمتلئ بالعناكب والأفكار الخاطئة والغرور والمعوقات الذهنية والعقلية وهى أشد خطورة علينا من الفقر والقهر.. إن التنمية الاقتصادية لم تعد أموالا واستثمارات فقط، وإنما هو الأهم ـ عقول متحررة من التعصب وأسلوب الحياة يمنع الغش والبقشيش.. فلن تفلح مليارات الدنيا معنا لو لم نسترد عقولنا وننقى أفكارنا والتجارب كثيرة فى الدنيا تؤكد ذلك.. فليس بالمال وحده يحدث التطور والتقدم.

وعلى طريق اليابان مشت الصين وكوريا وسنغافورة وماليزيا وأندونيسيا.. ونحن نسميهم النمور الآسيوية.. والتسمية لا تعجبنى .. وأفضل أن نسميهم العقول الآسيوية.. أو التجارب الآسيوية.. ففى هذه البلاد امتزجت التكنولوجيا بالحضارة فخلقت ضمائر جديدة صاغت واقعا جديدا.. يتغير كل سنة .. كل ثانية.. ولو سقطت ستقوم

.. ولو تعثرت ستنهض

فعناصر القوة كامنة فى أعماقها.

ما أقصده هو أن هناك عالما آخر يستحق أن نسافر إليه.. وتجارب مختلفة مذهلة يهون فى سبيل استيعابها التعب.

إن السفر إلى الآخرين هو مهنتي.. لا يهمني السفر إلى الفاترينات، والكباريهات، والفنادق، والملاهي وأشهى المأكولات.. ويوم أفقد أهتمامي بالآخرين سأفقد جواز سفرى.. سأتحول إلى تمثال من الجرانيت مثل تمثال رمسيس.. لا يسافر.. لا يتحرك.. لايتغير.. وساعتها أموت.

السفر بالنسبة لى حياة.. علاقة فى الهواء الطلق مع بشر حقيقيين يستحقون الرحيل إليهم.. وأنا لا أتصور كاتبا يلعب مع نفسه، أو يكتفى بالسفر داخل ذاته إلا إذا كان يخاف الاختلاط بالآخرين، ويرفض أن يصطدم بحواجز الإنسانية مع أنه بدون الاصطدام بهذه الحواجز يصبح الحوار مستحيلا.. والجديد مستحيلا.. والتطور مستحيلا.. وتصبح الكتابة مثل خشخشة أوراق يابسة جافة فى غابة لا يسكنها أحد!

السفر يد .. والدول والشعوب أبواب.. والأفكار والتجارب أيضا.. والكاتب الذى لا يدق الأبواب يبقى نائما وحيدا فى الشارع.. وهذا الطراز المستريح يمتد من الكتاب إلى السياسيين.. ومن الأدباء إلى رجال الأعمال.. ومن المثقفين إلى الوزراء.. ومن العلماء إلى لاعبى الكرة.. إنه طراز يحكمنا ويتحكم فينا فى مجالات مختلفة ويكتم على أنفاسنا، ويحاول أن يقنعنا بالسفر إلى الماضى باسم العودة إلى الجذور والتراث.. أو أنه عنده قدرة على القطع المذهل بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان.. ومشكلته الوحيدة التى لا يريد أن يعترف بها هى أنه عاجز عن استيعاب التغيير المجنون الذى يتغير بسرعة مذهلة.. مشكلته أنه جاهل مغرور معتز بنفسه. ولا يحفظ التميمة التى تفتح مغارة كنوز «على بابا» .. لا يعرف «أفتح يا سمسم» .. يعرف: أفتح يا فول .. ياشعير.. يا برسيم.

لقد سافرت فى شهر يونيو ١٩٩٧ إلى اليابان..

وفى شهو يونيو إيضا، ولكن فى سنة ١٩٨٢ سافرت إلى الولايات المتحدة، وأستوعبت وأنفعلت وكتبت كثيرا عن تجربة الحرية هناك، والتى تجعل أو تجبر الحكومة على ترك مكانها المفضل وهو الجلوس على قلوب الناس وأصابعهم. كانت رحلة من أهم الرحلات فى حياتى.. عرفت فيها أنه بدون الحرية يصبح الإنسان جزرة، بصلة، يسهل فرمها وتقطيعها فى طبق سلاطة يقدم للسلطة الفاشية لفتح شهيتها قبل الاستمتاع بالحكم.. بدون هذه الحرية يتمزق المجتمع ويتمزق الضمير القومى الأهم من الرقم القومى لمليون سبب.. بداية من لون البشرة وموطن الميلاد وكيفية عبادة الله، ونهاية بنوع الطعام ومكان عجلة قيادة السيارة.. على اليمين مثل الإنجليز واليابانيين والناس فى جنوب أفريقيا.. أو على الشمال مثلنا ومثل معظم شعوب الأرض وقد سجلت تجربتى فى أمريكا فى كتاب فاز بجائزة الدولة فى أدب الرحلات هو «امريكا الجنة والنار».

وعلمنى السفر كثيرا إلى أوروبا المختلفة أنه لا تجارب كبيرة ولا تجارب صغيرة.. كل تجاربنا الصغيرة هى فى الوقت ذاته تجربة العالم كله.. فالذات ليست شيئا منفصلا، ولكنها جزء من حركة الكون.

وفى جنوب افريقيا سافرت فى الوقت المناسب تماما.. كان فيه السود يتسلمون السلطة من البيض.. وقد صنع البيض من دماء السود تكنولوجيا، فكان السؤال: كيف سيحافظ السود عليها عندما تصبح فى أيديهم.. والقضية مهمة فى العالم الثالث بعد الاستقلال عن الاستعمار.. فقد

استبدلنا بالاستعمار الغربى استعمارا وطنيا.. أى بقوة غاشمة، فاسدة، قاهرة، لم تعرف الشعوب كيف تواجهها؟

وفى اليابان.. مليون سؤال.. معظمها يبدأ بـ«كيف»؟.. كيف فعلوها؟.. كيف توازنوا بين التطور والتقاليد؟.. كيف استغلوا حضارتهم القديمة فى صياغة حياة جديدة؟.. كيف واجهوا خراب الطبيعة وخراب القنابل الذرية الأمريكية؟.. كيف احتملوا بعضهم البعض فى علبة السردين أو علبة التونة التى يعيشون فيها؟.. كيف.. كيف.. مليون كيف.

الرحلة إلى اليابان تستغرق يوما بأكمله.. فقد سافرت ظهرا ووصلت طوكيو فى مغرب اليوم التالى.. وتضطر الطائرة للتوقف مرتين على الأقل، وقد نزلنا ترانزيت فى مطار بانكوك عاصمة تايلاند.. ومطار مانيلا عاصمة الفلبين.. وفى الطائرة شاهدنا ٣ أفلام وتناولنا الطعام ٤ مرات بخلاف الكثير من أكواب المشروبات «السوفت».. فمصر للطيران استسلمت لبعض طياريها، ومنعت المشروبات الثقيلة.. ومع أن الشركة كسبت القضية فإنها واصلت الاستسلام.. فلا نحن نحترم القانون.. ولا القانون يحترمنا.. وكل من يملك منا كارتا يلعب به.. لا قواعد ولا أصول.. والأفضل السكوت والكتمان وعدم المواجهة حتى ولو كنا نرى البخار يتصاعد من الغليان ونشم رائحة الشياط.. وهذه جريمة فى اليابان.. فقد تطور احترام العائلة إلى احترام الشركة.. وتطور احترام الشركة إلى احترام الوطن.. فالجماعة مقدسة.. والفرد بدونها يصبح منبوذا.. ليس أمامه سوى الانتحار.

وعلى الطائرة كان هناك شاب موهوب فى التعامل سياحيا مع اليابانيين.. فاليابانى أغنى سائح.. أغنى من الأمريكى.. فقد قرر اليابانيون أن يكافئوا أنفسهم بالسفر، وأن يتخلصوا من عقلية الجزيرة عقلية العزلة.. وكل سنة يسافر ١٧ مليون يابانى إلى الخارج.. أغلبهم من الشبان والبنات تحت ثلاثين سنة.. فهم الأجيال الجديدة التى تعيش زمن الكون الواحد.. أو الكونية.. أو الجلوبلية.. ونصيبنا من هذه الثروة السياحية ٧٠ ألفا فقط.. ونقول أحيانا أنهم ٩٠ أو ١٠٠ ألف، لا مانع.. وأيضا لا شىء.. ونحن السبب.. فنظرتنا لهم ليست على مايرام.. حسنة وأنا سيدك.. وأسلوبنا فى التعامل معهم فيه جليطة وفيه فهلوة نتصورها شطارة وخفة يد.. وفيه كذب ولف ودوران يصل أحيانا إلى حد النصب.

حكوا لى عن مرشد سياحى جمع ٢٠ دولار من كل سائح يابانى ليأكلوا الحمام بعد أن قال لهم أن الحمام طائر فرعونى مقدس.. ممنوع ذبحه.. وأنه تحايل على كل ذلك ليأكلوه.. ودفعوا وأكلوا وسألوا وعرفوا الحقيقة ونشروها وفضحونا.. ولم يعاقب المرشد السياحى بجريمة تخريب السياحة والاقتصاد القومى.. إنه لا يختلف كثيرا عن الإرهابيين الذين حاولوا تطفيش السياح بالرصاص.. ويحلمون بهدم الهرم ونسف أبو الهول لتعود مصر إلى الصحراء والخيام وركوب الجمال.

وحكوا لى عن صاحب شركة سياحة فى الأقصر مات شقيقه فأقام سرادق العزاء وأقنع السياح الذين توافدوا على السرادق لشرب القهوة السادة وسماع القرآن أنهم سيحضرون «حفل قرآن».. أو قرآن بارتى.. ودفعوا ١٠ دولارات للسائح الواحد.. ومرة أخرى عرفوا الحقيقة وفضحونا.

وحكوا لى عن مياه الطرشى التى تباع فى محلات العطور الشرقية على أنها البارفان الخاص لآلهة الشمس الفوعونية. وعن الخضروات التى يغسلونها فى النيل مباشرة فى رحلات النيل كروز فى جنوب الصعيد.. وعن مياه الشرب والاستحمام غير النقية.. ومرات عديدة عرفوا الحقيقة وفضحونا.. والواقع أننا نحن الذين نفضح أنفسنا.. فهذه ليست سياحة، وإنما جريمة.. ولا أحد يحاسب أحدا.. والمجتمع كله يدفع الثمن.. لكن. كيف نفصل بين أسلوبنا فى التعامل مع أنفسنا وأسلوبنا فى التعامل مع الآخرين؟.. إن السلوك لا ينقسم على اثنين.. والفرص الضائعة المهدرة سببها التفكير الخاطئ الذى يسودنا.. اخطف واجر.. اكسب بدون مجهود.. ألم أقل لكم أن التنمية تحتاج لما هو أكثر من الأموال.. أسلوب أفضل للمعاملة.

الرحلة طويلة.. والحكايات لا تنتهى.. والشكاوى أيضا.. الرحلة طويلة والنوم لا يأتى.. والقراءة متعة ومتعة خاصة إذا كانت عن اليابان.. فقد أكتشفت أننى للأسف لا أعرف عن اليابان سوى مانعرفه جميعا.. إنها معجزة الأجهزة الالكترونية والكهربائية الدقيقة.. نعرف أسماء الماركات اليابانية ولا نعرف أسلوب الحكم، وجذور الحضارة، وفلسفة النمو، وحياة البشر.. وقد كنت مثل تلميذ يذاكر متأخرا.. وعليه أن يدخل الامتحان بعد ساعات.

وأعترف بأن كتاب السفير الأمريكى الأسبق «أدوين رايشاور» قد ساعدنى كثيرا.. كان سفيرا لبلاده فى طوكيو فى بداية الستينيات.. وانفصلت عنه زوجته.. فتزوج من امرأة يابانية.. وأغلب الظن أنها جعلته

يغير عقلية الكاوبوى أو راعى البقر الأمريكى، ويعيد النظر فى الفلسفة الغربية البرجماتية النفعية.. ويستوعب الحضارة اليابانية ويمشى وراء جذورها، ويتابع تأثيرها للتأثير على الإنتاج والثروة.. إنها المرأة اليابانية التى علمته أن الإنسان حين يتحدث عن حبه إنما يتحدث عن حب العالم كله، وحين يتحدث عن حزنه إنما يتحدث عن حزن الدنيا كلها.. الإنسان جزء من أرض ومجتمع وتاريخ وموروثات ثقافية ونفسية وعضوية، وكل تصرف يقوم به الإنسان يحمل فى ثناياه كل ذلك.. وهذا تلخيص دقيق للتجربة اليابانية.. والشخصية اليابانية.. لكن هذا لا يمنع العناصر المتحركة من التغيير بسرعة تجعل القدرة على التحليل الدقيق أمرا صعبا.. إن أى حكم عام يفسر الأحداث تفسيرا صحيحا فى عقد من العقود قد تشوبه أخطاء فى العقد الثانى.. ثم يصبح بلا قيمة فيما بعد.

وطلبت فنجانا آخر من القهوة وأنا أواصل دور التلميذ الذى تأخر فى المذاكرة.. لكن المضيفة المصرية الرقيقة اقترحت أن أفتح النافذة وأرى ضوء النهار الذى بدأ يتسلل.. على أن إرتفاع الطائرة إلى أكثر من ٣٠ ألف قدم يجعلك لا ترى قرص الشمس الأحمر أو البرتقالى فى لحظات الشروق.. إنه قرص مكتمل الاستدارة عندما تراه ستعرف بسهولة لماذا اختار اليابانيون أن يكون علم بلادهم دائرة حمراء فى قلب مستطيل أبيض.. إن الدائرة هى الشمس، والمستطيل هو السحب، وقد عبدوا الشمس واعتبروها الإله الأكبر.. وقدسوا بلادهم لأنهم تصوروا أنها عين الشمس وحدقتها ورموشها.

وبدأت الطائرة فى الهبوط.. إن تكنولوجيا الطيران جعلت الراكب يرى خط سير الطائرة على خريطة واضحة تعرضها شاشة أمامه.. فأنت فى أى

لحظة تعرف على أى أرض تطير.. أو على أى أرض تجلس أو تنام أو تأكل أو تقرأ أو تدخن فوق السحاب.. لقد خرجت الطائرة من القاهرة وعبرت البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية، ومنها إلى الخليج العربى، وعبرته إلى الهند التى قطعتها بالعرض لتتجه إلى جنوب شرقى آسيا، حيث تايلاند والفلبين.. ثم اتجهت إلى اليابان.. إن هذا الطريق لا يقل عن ١٧ ساعة طيران بخلاف ساعات الترانزيت بسرعة تزيد على الألف كيلومتر فى الساعة.

ومتعة أخرى وفرتها تكنولوجيا الطيران.. أن ترى على الشاشة أمامك الإقلاع والهبوط.. إن فى مقدمة الطائرة كاميرا تليفزيونية تنقل للركاب ذلك الطائرة وهى تتحرك ثم وهى تجرى على الخطوط البيضاء والصفراء المرسومة على الممر.. ثم وهى ترتفع بمقدمتها وتواجه السحب.. ثم وهى تستقر فى السماء.

ويمكن أن تجد بالونة حمراء أمامك على الشاشة فى لوحة سريالية لقد اصطدمت الكاميرا بطائر وقتلته فظهرت دماؤه على الشاشة.. ونحمد الله على أن البشر لا يطيرون.. وإلا كنا أمام جرائم قتل من نوع فريد.

وفى الهبوط ترى الطائرة وهى تقترب من المطار بكل ماحوله من حركة ومرور وبيوت وأضواء.. ثم والعجلات ترتطم بعنف بالأرض.. ثم وهى تسير مخفضة سرعتها تدريجيا حتى تقترب من صدر الملاح الأرضى الذى يكلم قائدها بلغة الإشارات الضوئية الحمراء المتفق عليها.

لقد هبطنا الآن فى مطار ناريتا، وهى ضاحية تبعد عن طوكيو بحوالى ٧٥ كيلومترا.. أى أن المطار أبعد من الميناء البحرى يوكوهاما التى تقع على

بعد ٢٥ كيلومترا فقط.. ولست فى حاجة لأن أقول لك أن المطار نظيف وحديث وسهل التصرف فيه.. لكن.. عند الحقائب كانت الكلاب البوليسية فى انتظارنا.. إنها تقترب منك بمجرد أن تحمل حقائبك وتبدأ فى الشمشمة بحثا عن المخدرات والأسلحة.. وربما بحثا عن ممنوعات أخرى درّبوا الكلاب على اكتشافها ولا أعرفها.

وخلال ١٠ دقائق بالضبط وجدت نفسى خارج المطار .. وجها لوجه أمام عالم غريب. يصعب فهمه.. ويصعب التفاهم معه بسبب اللغة التى تبدو حروفها مثل أشكال البيوت.

وحتى تسترد حيلك وتعرف كيف تتصرف فى بلد مثل اليابان لا تعرف لغته، سوف أغششك بعض الجمل الضرورية.. مثلا صباح الخير، تنطق أوهايو جوازايمازو OHAYO - GOZAIMASU، وشكرا جزيلا تنطق دوموا أريجاتو جوزايمازو DOOMO ARIGATO GOZAIMASU وأعتقد أن ذلك يكفى ولو مؤقتاً.

تفضل.. أنت الآن فى اليابان ■



نهاية فتاة الجيشا !

فتاة الجيشا لم تكن فى أنتظارى على باب المطار.

فكرة خاطئة، ساذجة، بل بلهاء أنها ستكون هناك.

تماما كما يتوقع الأجانب الذين يهبطون مطار القاهرة أول مرة أن نفرتيتى ستكون فى شرف استقبالهم، وأن رمسيس الثانى سيراجع بنفسه جوازات سفرهم، وأن الجمال والحمير هى التاكسى الشائع فى مصر.

إن كلمة جيشا تعنى المرأة الموهوبة، الفنانة، الجليسة، الأنيسة... أو بالتعبير المصرى الشائع «العالمة».. لكنها ليست مثل «عوالم» شارع «محمد على» أو «عوالم».. الكباريهات الرخيصة فى القاهرة، وإنما هى عالمة بأصول تدليل الرجل وأصول التعامل معه على طريقة «سى السيد» بطل نجيب محفوظ الأشهر فى الثلاثية... فالجيشا تجلس إلى الرجل لتقدم له «فوطا» صغيرة، ساخنة، وباردة ليمسح بها وجهه ورقبته ويديه، وهى تصب له الشراب دون أن يرفع كأسه كما يفرض الأدب اليابانى إذا كان الذى يصب له الشراب رجلا مثله، وهى تقدم له الطعام وتساعده أن يأكل وتمسح له يديه وشفتيه... لكنها لا تأكل.. وهى تنظر فى عينيه لتلتقط رغباته دون أن يتكلم أو يرهق نفسه بالإشارة.. ويمكن أن تغنى أحيانا... ويجب أن تساعده إذا طلب ذلك.. ويمكن أن تكون عشيقته إذا كان الرجل فى منتهى الثراء... مليارديرا.

وهى ترتدى الكيمونو الملون بألوان زاهية، والمنقوش برسومات بديعة، والمشغول بخيوط الذهب والفضة.. وتغطى وجهها بمسحوق أبيض كثيف فى لون الزبادى فيصبح وجهها قناعا.. ربما نوعا من التخفى.. وترسم عينيها بالكحل الأسود الفاحم وتضع على شفتيها الروج او الأحمر الفاقع.

لكنها ليست موجودة الآن فى طوكيو بسهولة.. موجودة فى أماكن نادرة، خاصة فى كيتو.. العاصمة القديمة التى تقع على بعد مئات الأميال من طوكيو... وتحافظ على طابعها القديم.. كنت أصعد وأهبط أزقة صغيرة أتفرج على التحف اليابانية التقليدية التى تباع للسياح عندما وجدت مطعما لا يفتح بوابه قبل المساء مكتوبا على بابه الخشبى أن لديه جيشا تقدم الطعام

فقط.. وعرفت أن ذلك يكلف الزبون ٣٠٠ دولار خلال نصف ساعة بخلاف ثمن الطعام.. لكنها حالة نادرة.. فالجيشا تنقرض.. وقد قرأت أن عددهن لايزيد الآن على ٢٦٠ جيشا فقط وكان العدد قبل ٢٠ سنة ٤٠٠٠ على الأقل.. وهناك دعوة للحفاظ عليها.. وهناك مدرسة تُدرب الفتيات على فنونها ولكن لا إقبال عليها.. والأغنياء ورجال الأعمال يتبرعون لتظل هذه المدرسة مفتوحة...

فالجيشا تراث يحاولون الحفاظ عليه.. أو الرجال وحدهم الذين يريدون ذلك.. لأنهم يفضلون المرأة الجيشا، أى المرأة التى تفتح عينيها ليناموا فيهما باطمئنان.. المرأة التى تقنعهم بأن مملكة الحريم تبقى أسعد الممالك.. المرأة التى لا تقول سوى كلمة «هايى» أى «نعم» أو «حاضر... المرأة التى ليس لها رأى أو دور أو قيمة سوى المتعة..

ولو أنجبت الجيشا من سيدها أو عشيقها اعترف بابنه.. فالطفل غير الشرعى يقبله المجتمع.. ،يمكن أن يرث مثل الابن الشرعى.. ومثل الابن بالتبنى.. إنها وسيلة المجتمع للحفاظ على كيان الأسرة ولو على حساب المرأة.. وزمان كان الزواج لايعد قائما إلا إذا أنجبت المرأة.. فالطفل أهم من أمه.. لذلك ينتمى ابن الجيشا لأبيه أما أمه فتظل خادمة أو جارية تخدم السيد فى بيته وفى وجود زوجته التى ليس لها حق الاعتراض.. وهو ما ترفضه المرأة الآن فهى لا تريد أن تكون جيشا... ولا تعرف كيف ترتدى الكيمونو.. ويصعب عليها تقديم الشاى بطقوسه المعقدة على الطريقة اليابانية.. بل إن نسبة كبيرة من الفتيات يرفضن الزواج، وتحكم الرجل، وحماتها وأسرة الزوج وهو انقلاب كبير فى المجتمع.. ونسبة متزايدة من

المتزوجات تطالب بالطلاق.. وسهل الحصول عليه فى اليابان.. فقد اتاح العمل والمساواة والأجر الكبير للمرأة فرصة للاستقلال فى حياتها الخاصة.

إنها الحياة العصرية التى اجتاحت اليابان. وفرضت إرادتها على الرجل قبل المرأة.. لا يمكن أن تستعمل تكنولوجيا القرن العشرين وتعيش بأسلوب القرن الثامن عشر.. لا يمكن أن تركب الطائرة وتفتح الكومبيوتر وتضغط على زر التليفزيون وتمشى بالتليفون المحمول وأنت تفكر بعقلية القرون الوسطى.. هذه شيزوفرينيا نعانى منها نحن... ويحاولون تجنبها فى اليابان.

قالت لى دبلوماسية شابة فى وزارة الخارجية اليابانية: لا وقت لدينا لكى نتوقف ونتساءل : هل نستوعب التغيير ام نرم ما جرى للعلاقات والتقاليد... فالتغيير مثل البرق.. خاطف.. يمر عليك بسرعة ولا ينتظرك حتى تحسم معوقاتك الذهنية وموروثاتك القديمة التى تعطلك.. إذا لم تستجب إليه ستجد نفسك فى الجحيم.

ولم أشأ أنّ أقول لها إننى أعرف هذا الجحيم ونعيش فيه... فنحن نبدد طاقاتنا فى التفكير لا فى التغيير.

أضافت: لماذا تتحدث عن المرأة فقط؟... فكما أنك لا ترى الجيشا.. فأنت أيضا لا ترى الساموراى.

والساموراى هو الفارس الشهم الذى يرتدى هو الآخر الكيمونو ويعلق سيفين فى حزامه ويدافع عن شرفه وشرف مجتمعه.. وهو يمكن أن يقتل نفسه أو ينتحر بالطريقة التقليدية المعروفة «سيبوكو».. أى الانتحار المشرف

للخروج من ورطة أو إهانة.. والانتحار يكون بشق البطن بالسيف وببطء أحيانا ودون أن يظهر المنتحر إحساسه بالألم.. فهذا عار أيضاً.

ويندر أن ينتحر اليابانيون بهذه الطريقة الآن إلا فى أفلام السينما ويندر أن تجد يابانيا لا يترحم على أخلاق الساموراى التى انقرضت ولم يبق منها سوى احترام كبار السن.. وكبير العائلة.. والرئيس فى العمل.. والانتماء إلى الجماعة.

إن اليابانيين الذين تراهم فى كل مكان فى بلادهم هم عصريون جدا.. أو على الأقل هكذا يبدون فى الشوارع والمكاتب والمقاهى والمطاعم ومحطات المترو.. إنهم يرتدون الملابس الغربية ويتسمون بالأناقة.. فالرجال يرتدون البدلة الكاملة برباط العنق فى عز الصيف والمطر والرطوبة.. واللون الكحلى بالذات للمقابلات الهامة.. وأحمد الله أنه اللون المفضل عندى رغم أننى لا أفضل البدل.. وهناك قواعد بروتوكول صارمة فى المناسبات الرسمية، والصحف مستعدة للتشهير بأى مسئول ولو أجنبى لا يراعى ذلك خاصة إذا كان فى القصر الامبراطورى.. وهو ما حدث كثيرا مع رؤساء جاءوا من العالم الثالث.

والنساء يرتدين آخر موضة.. وأجسامهن الرشيقة، النحيفة غالبا تساعدهن على ذلك.. وأنت فى أى شارع أمام كرنفال من أحدث عروض الأزياء.. المينى أو الميكروجوب.. البنطلوب المحزق الملتصق بالجلد.. الأكتاف العارية.. الألوان المتناسقة.. الإكسسوار المناسب.. وليست صدفة أن عشرة من أهم مصممى الأزياء فى باريس عاصمة الذوق والموضة، هم يابانيون.. منهم كينزو الذى شارك فى عرض كلوديا شيفر تحت سفح الهرم فى صيف

١٩٩٧ .. ومنهم هانا مورى وهى امرأة شهيرة فى هذا العالم.. اسمها مثل الطبل وتستطيع أن تعرف مستوى ذوقها وإبداعها فى معرضها الدائم فى شارع كوموتو ساندو.. شارع البوتيكات الراقية فى طوكيو.. وفى هذا الشارع ايضا اشتريت كيمونو يابانيا تقليديا وفناجين للقهوة من الخزف.. وعرائس ملونة من الورق والقماش.. ففى اليابان الجديد لا ينفى القديم ولا ينفر منه.. إنهما يتعايشان معا.. ويتبادلان الود والخبرة.

لكن ما يحيرنى هو أن اليابانيين دائما ما يضعون فى أقدامهم أحذية أكبر من مقاسهم.. صحيح أنهم يؤمنون بأن راحة الرأس تبدأ من الحذاء.. وصحيح أنهم يضعون أقدامهم فى الأحذية أكثر من ١٢ ساعة فى اليوم.. لكن صحيحا أيضا أنهم يحدثون صوتا عند المشى بسبب الأحذية الواسعة وكأنهم لا يستعملون حذاءً وإنما «برطوشة».

والملاحظ أن سيقانهم فى الغالب مقوسة والسبب أن هذه السيقان كانت تلف حول ظهر الأم التى حملتهم وهم أطفال، كما أن السيقان قصيرة والسبب أنهم لم يتعودوا الجلوس على المقاعد المرتفعة إلا مؤخراً.. كما أن الساقين فيهما عضلات بارزة والسبب القبقاب الخشبى الذى استعملوه طويلا.. وهو ضخم.. كانت شجرة الدر التى قتلت بقبقاب ستصعق لو رأته.. وربما أسعدها لأنه كان سيخلصها من حياتها أسرع.

ولن ترى هذه العيوب الجماعية الوراثية فى الرجال لأن البنطلون يخفيها لكنها واضحة فى النساء.. الثياب القصيرة تفضحها.. لذلك تهتم المرأة اليابانية بصدرها لعلك تبعد نظرك عن ساقيها.. وهى تحلم بالصدر الكبير.. إنه مقياس الجمال والأنوثة عندها.

شاهدت في التليفزيون برنامجا لا أعرف أوله من آخره.. كل ما رأيته ان مذيعا يابانيا شابا يجرى حوار مع امرأة أمريكية شبه عارية.. صدرها ضخم وجسمها أيضا.. وأنه لا يصدق أن فى الدينا امرأة لها صدر بهذا الحجم وقد سمحت له أن يتحسسه حتى يتأكد أنه حقيقي.. طبيعى لا تزوير ولا غش فيه.

لكن.. سواء أكانت المرأة جميلة أم متواضعة الجمال.. أنيقة أو مهملة فلا أحد يلتفت.. لا أحد يمشى وراءها بعينيه.. لا أحد يفحصها.. هذا عار.. رغم أن ما خفى كان أعظم.. فكل شخص حر فى حياته الخاصة... بشرط ألا يجرح الشعور العام.. ويندر أن تجد شابا وفتاة ملتصقين.. لا قبلات فى عرض الطريق.. لا استفزاز للمشاعر.. ام لا أحد عنده وقت للتسكع.. الكل مندفع لقضاء أشغاله أو مصالحه.. الكل مشغول بنفسه.. يمشى.. يتحرك.. يندفع.. يلحق المترو.. يقرأ فى المترو أو يستغل الفرصة فى غفوة خاطفة.

واليابانيون لا يتشابهون فى الملامح فقط وإنما فى مستوى الأناقة ومستوى المعيشة أيضاً.. والسبب أنهم جميعا ينتمون للطبقة المتوسطة أو أغلبهم.. إن أكثر الإحصائيات تحفظا يؤكد أن ٨٠٪ من الشعب اليابانى ينتمون للطبقة المتوسطة.. وهناك من يرفع النسبة إلى ٩٠٪.. وهناك من يرفعها أكثر.. وهذه النسبة فى رأيى هى أهم عناصر المعجزة اليابانية.

لقد تحققت أعلى نسبة من المساواة بين الناس عند مستوى متوسط عندهم ومرتفع جدا بالنسبة لنا.. وهو ما لم تحققه الدول الغربية حيث ترتفع نسبة الطبقة المتوسطة ولكن ليس إلى المستوى اليابانى، بل إنها تعجز عن الاقتراب منه.

وهذا فى رأيى قلب المشكلة فى مصر.. إن الطبقة المتوسطة فى بلادنا تنكمش.. تتآكل.. وكثير منها يسقط إلى الطبقات الدنيا.. وقليل من الطبقات الدنيا ينجح بسهولة فى الصعود إليها.. ومعظم أبناء هذه الطبقة (وهم من المهنيين وصغار التجار والمبدعين) يكافح جاهدا ليبقى فى موقعه وهو ما يدفعه للبحث عن رزقه فى أكثر من عمل.. أو فى عمل لا يناسب مواهبه أو طموحه.. فالمحامى يعمل جرسونا.. والمهندس سائق تاكسى.. والمحاسب يعمل فى تركيب ورق الحائط.. والسبب أن الدخل من هذه المهن أكبر.. بل إن البعض قد يعمل فى أية مهنة وبأى أجر بسبب نسبة البطالة المرتفعة.. وهناك من لا يجد مفرا من السفر للعمل فى بلاد مجاورة ثرية مضطراً لتجاهل الآثار الاجتماعية والنفسية التى تصيب أسرته، خصوصا أولاده بسبب غيابه.. كما أنه لا يجد الوقت ولا المال للترفيه والثقافة والقراءة.. فالمال الذى يحصل عليه يكفى التعليم والطعام والثياب والسكن وليس فيه ما يفيض لشراء كتاب أو اسطوانة أو الذهاب إلى المسرح.

ولا جدال أن ذلك يسعد أية حكومة.. أن تنشغل هذه الطبقة التى ترتفع فيها نسبة التعليم والوعى العام بنفسها.. فلا تغضب.. ولا تنتقد.. ولا تنتمى إلى حزب.. وتفقد أسنانها وأظافرها.. ولكنها من ناحية أخرى عبرت عن استيائها من باب المسجد والجهاد فى سبيل الله فى أحيان كثيرة.

والطبقة المتوسطة هى طبقة ديناميكية، نشطة، تطمح للصعود من خلال التعليم والاختراع والموهبة والإبداع الفنى والأدبى والسياسى والعلمى والقانونى.. ومن ثم فهى المسئولة عن التطوير والتغيير والابتكار والتجديد.. لكنها إذا لم تأخذ وضعها المادى والمعنوى تحولت الى طبقة فاسدة، أنانية،

مستعدة للكذب والنفاق والرشوة والتواطؤ من أجل ألا تسقط إلى القاع.. أو من أجل الصعود إلى أعلى.. إذا كان ذلك الطريق الوحيد إلى فوق.. وأغلب الظن أن هذا يفسر كثيرا مما يحدث فى مصر الآن.

لا طبقية تقريبا فى اليابان.. فالفقراء حوالى ١ ٪ فقط.. والأغنياء جدا ليسوا نسبة تذكر.. ربما ٥ ـ ٨ ٪ فقط.. وفى منطقة سيشنجو وهى اسم محطة أندرجروند مركزية فى طوكيو، وحولها ناطحات سحاب، وفنادق ضخمة ستجد عينات تذكارية من الفقراء الذين يعيشون فى الانفاق فى بيوت من كرتون وإن رسموا عليها بألوان الطباشير.. وهؤلاء يرفضون الإقامة فى بيوت الإيواء الحكومية.. ويأكلون من الأطعمة التى على وشك أن تنتهى صلاحيتها وتلقى بها المحلات والمطاعم بالقرب من أماكن تجمع القمامة.. كما أنك فى هذه المنطقة قد تجد متسولا من نوع خاص.. يمد يده بطبق لتدفع له النقود التى يجمعها من أجل المعبد.. فهو فقير يريد أن يساعد المعبد.. فيتسول ساعة أو ساعتين لله.

على أن ذلك كله لا يذكر أمام التيار الرئيسى الهادر للطبقة المتوسطة المفتوح أمامها كل الأبواب.. وكل الطرق.. وكلمة السر هنا.. التعليم.. التعليم هو المصباح السحرى لتحقيق الأحلام،، وهو أسانسير الصعود الاجتماعى.. هو جسر الانتقال من طبقة الى طبقة أعلى.. لا الأسرة، ولا الثروة، ولا السلطة، ولايديولوجية هى التى تحدد نمط الحياة العملية التى يصلح لها المواطن.. إنها فعلا «بلد شهادات»، وهم يفخرون بذلك ولا يسخرون منه، كما نفعل نحن لحساب الأثرياء الجدد الذين كونوا ثروتهم بطرق ملتوية، وفشل بعضهم فى فك الخط.. ولا أحد هناك يقول كما

نقول نحن أن الحياة مدرسة.. فالمدرسة مدرسة.. والحياة حياة.. الحياة أسلوب معيشة يجيده الذين تعلموا فى المدارس والجامعات.

ويندر أن تجد شخصا بارزا فى اليابان لم يتخرج فى الجامعة.. ونموذج المليونير أو السياسى العصامى الذى بدأ من الصفر، من القاع، على طريقة الأساطير الأمريكية، يندر وجوده فى اليابان.. وفى كل تاريخ اليابان الحديث الممتد منذ بداية الحرب العالمية الثانية لم يفلت من هذه القاعدة الصارمة سوى مسئول واحد هو تاناكا كاكووى الذى كان رئيس وزراء فى الفترة مابين ١٩٧٢ و ١٩٧٤.. أنه لم يدرس فى الجامعة لكنه تخرج فى أحد المراكز الصناعية.. ونجح فى قطاع البيزنس.. ولمع نجمه فى الحزب الليبرالى الديمقراطى.. وهو يوصف بأنه «الأب الروحى لليابان»، وهذا الوصف عنوان كتاب عنه ألفه د. فوجيورا هيراتاتسو، وقد أهدتنى الكتاب.. مع كتب أخرى عن اليابان.. السفيرة المصرية فى طوكيو (حتى نهاية صيف ١٩٩٧) ميرفت التلاوى وزيرة الشئون فيما بعد.

لكن.. كاكووى استثناء نادر فى قاعدة قوية، ثابتة، راسخة... أن التعليم فقط هو الذى يفتح الأبواب المغلقة.. لا يهم من يكون الشخص؟... ولا ما يملك؟.. ولا إلى أية أسرة ينتمى؟.. لايهم ابن من يكون؟.. المهم فى أى جامعة تخرج.. وأى امتحان اجتاز.. وعلى أية شهادات حصل؟.

وفى اليابان ٥٦٥ جامعة وأكثر من ١٣٧ألف أستاذا جامعيا، وأكثر من ٢,٥ مليون طالب فى كلياتها المختلفة.. بخلاف الكليات المتخصصة والمعاهد التكنولوجية وعددها معا ٦٥٨.

وجامعة طوكيو هى الحلم الكبير لأى شاب، فهى أهم وأقدم وأشهر الجامعات وأكثرها قوة ونفوذا.. وقد استقرت فى شكل مناسب فى عام ١٨٧٧، ثم تغير اسمها فى عام ١٨٨٦ فأصبح «جامعة طوكيو الامبراطورية».. وحسب معلومات أودين رايشاور فى كتابه «اليابانيون» كان خريجوها مؤهلين لشغل الوظائف العليا دون دخول امتحانات الوظائف العامة لكن مع الوقت وازدياد اعداد الخريجين أصبح الجميع متساوين.. وأصبحت الفرصة فقط للأشطر.

والتعليم فى اليابان إلزامى ومجانى فى التسع سنوات الأولى حتى بداية التعليم الثانوى... ثم تزداد المصاريف حتى تصبح نارا فى الجامعة.. ففى بعض الكليات لايدفع الطالب أقل من مليون دولار حتى يتخرج.. ولكن الغالبية من اليابانيين تكون مستعدة لهذا اليوم منذ سنوات وسنوات بادخار المال الذى يكفى لهذا الاستثمار الهام.. والأهم من المال التحصيل.. لذلك يتعرض الطلاب - خصوصا فى المدارس الثانوية - إلى ضغوط نفسية وعصبية وعائلية واجتماعية هائلة ليحصلوا على الدرجات التى تؤهلهم لدخول أفضل الكليات.. تماما مثلما يحدث فى مصر.. فى الثانوية العامة.. وأحيانا ينتحر الطلاب عندما يشعرون بالعجز عن التحصيل.. وكثير من الأسر تحدد النسل وتكتفى بإنجاب طفلين لتقدر على أن توفر لهما حياة أفضل وتستطيع أن تدخلهما الجامعة.. وتلعب الأم (كما فى مصر أيضا) الدور الأكبر فى الإشراف على أطفالها لضمان أداء واجباتهم بإخلاص.. وتوصف الأم التى تلعب هذا الدور بأم التعليم أو كايوكو ماما KYOIKU MAMA.

وتنفق الحكومة على التعليم العام (غير الجامعى) ٢١,٢٩٢,٧ مليار ين حسب إحصائيات ١٩٩٥ أى حوالى ٦٪ من جملة الدخل القومى.. إنها سخية جدا فى هذا المجال.. ومجال البحث العلمى أيضا الذى تنفق عليه ٨ مليارات دولار سنويا أيضا.

وفى الوقت نفسه ليس هناك غش فى الامتحان ولابرشام ولاموبايل تحت الثياب فى اللجان.. وليس هناك إجازات صيفية طويلة.. شهر واحد يكفى.. بخلاف الأعياد ورأى السنة اليابانية.

ولايزال التعليم فى اليابان هو مصدر قوة الحكومة فالبيروقراطية هى الضلع الأكبر فى مثلث حكم، الضلع الأصغر فيه للسياسيين، وضلع الوسط لرجال الأعمال.. فالكل يسمع كلام الحكومة لأن الحكومة تخدم الناس وتحقق مصالحهم.

وقد كان من حظي أن الفندق الذى أقمت فيه فى طوكيو قريب جدا من مدرسة بنات ثانوية.. على الناحية الأخرى من الشارع فى حى هادئ.. وأتاح لى ذلك فرصة يومية للتأمل والمتابعة من نافذة غرفتى.

الفندق اسمه كابوكيكان، وهو فندق رزين ليس كالفنادق الكبرى التى تشبه ناطحات السحاب وتمتلئ بالصخب.. إنه مناسب جدا للدبلوماسيين والوزراء والشخصيات العامة ورجال الأعمال وضيوف الدولة.. فكل غرفة عبارة عن جناح فيه غرفة النوم وصالون وحمام ومطبخ ومكان مناسب للطعام.. ومطاعمه وخدمة الغرف فيه لاتسهر بعد الساعة العاشرة مساء.. وتكاد خدمات الفندق تقتصر على النزلاء وضيوفه.. لذلك فأسعاره لاتطاق ويكفى مؤقتا ان أذكر لك أن القهوة تكلفك حوالى ٢٥ جنيه. لكنه على

الأقل يناسب الذين ينسون فى السفر الأشياء الصغيرة الضرورية.. على السرير كومينو للنوم يتغير يوميا فرحت باستعماله بعد أن اكتشفت أن بيجامتى الجديدة التى اشتريتها قبل السفر مباشرة نسى المصنع أن يركب لها فى البنطلون أزرارا(!!).. وفى الحمام برنس وماكينة حلاقة وفرشاة أسنان ومشط.. وفى الدولاب شبشب.. إنها الأشياء الصغيرة التى تميز اليابانيين عن غيرهم.. وهذا ما تجده فى معظم الفنادق الكبرى.. وفى فندق فى هيروشيما.. حيث الزوار الأجانب أكثر، وجدت «شطافة» كهربائية فى التواليت.. تضغط عليها فيخرج الماء بدرجة الحرارة التى تريدها.. وفى المكان الذى تحدده.. وبالقوة التى تريدها.. وأحمد الله أن تعليمات التشغيل باللغة الإنجليزية.

وقد فوجئت بمجرد دخول غرفتى بفندقى فى طوكيو بميكروفون يصرخ بكلمات يابانية غاضبة لا أفهمها.. كأن أسدا يزأر.. أو ضفدعا يتكلم.. واختلط بهذا الصوت جرس عنيف أشبه بجرس الحريق.. ووجدت نفسى أعود وأدخل فى ملابسى التى كنت خلعتها توا استعدادا للحمام.. ولا أعرف ما إذا كنت ارتديت القميص مكان البنطلون.. أو الفانلة مكان الكرافتة.. أو أننى نسيت بعضا منها.. ما اتذكره أننى خرجت بسرعة من الغرفة وهبطت الطوابق السبعة على السلالم لا بالأسانسير حسب التعليمات المكتوبة على أبواب المصاعد فى كل فنادق العالم.. وعندما وصلت الى «اللوبى» لم أجد أحدا غيرى.. وكان موظفو الاستقبال يعملون فى هدوء ولم يفهموا سر انزعاجى.. فقد كانوا يجربون إنذار الحريق ويختبرون مدى سرعة استجابة الموظفين لا النزلاء.. وقالوا: إن الإنذار كان باللغة اليابانية الواضحة.. فلماذا انزعجت؟.. ولماذا لم أفهم/.

إن أخطر مشاكل التعليم فى اليابان هى أنهم لا يقنعون الناس بأهمية اللغات الأجنبية.. فنادرا ماتصادف يابانيا يتكلم لغة أجنبية.. وإن صادفته فبضع كلمات لاتكون جملة مفيدة.. أو جملة مفهومة.. مثل سائق التاكسى الذى كان ضابطا فى البحرية أثناء الحرب العالمية الثانية ويهوى حفظ كلمة «شكرا» بكل اللغات. وهو يعرفها منذ حوالى ٣٥ سنة. ويتعلمها من الزبائن.. ويقولها لهم.. ويسهل طلب فنجان قهوة.. لكن يصعب أن تقول للبائع اين تريد أن تشربها.. فى المحل.. أو فى خارجه.. وسهل أن تقرأ الأسعار.. صعب أن تعرف ضريبة المبيعات الإضافية.. لعنة الله عليها هنا وهناك..

وعندما كنت أريد تناول الطعام بمفردى كنت أتفرج على فاترينات المطاعم و أشاهد أطباق الطعام.. أشكالها ألوانها.. وهى مصورة على زجاج مضئ أو لها نماذج مذهلة من البلاستيك أجمل من الحقيقة.. يمكن أن يعطنى طبق من الطعام.. فأنا أختار بالشبه.. ويمكن أستنتج بعض — لا كل — مكوناته.. وأدخل المطعم وأجلس، ويأتى الجرسون هو يحمل فوطة مبللة بالماء وكوبا من الماء المثلج حسب العادة ويضعها أمامى.. ثم يحضر قائمة الطعام الخالية من الصور، والمكتوبة باللغة اليابانية ولا مفر من آخذه من يده إلى الخارج وأشير إلى ماأخترت مندهشا.. ويقول كلاما لاأفهمه.. ليس منه صفة الغباء.. فهم شعب مؤدب، وتأتى المشكلة الأكبر.. عدم وجود شوكة.. فالمفروض أن تأكل بالعصا.. وأنا لاأعرف كيف أستعملها؟ ولاأعرف كيف أطلب شوكة؟ ولا أعرف ما إذا كان عيباً أن آخذ شوكة أو إذا كان هناك شوكة أصلا؟. وأضطر لاستعمال العصا.. أنجح مرة وأفشل عشر مرات قد وجدت أن هذه أفضل طريقة للريجيم.. لماذا لانجر بها فى مصر؟

إن ضعف اللغات الأجنبية أبرز نقائص التعليم فى اليابان خاصة فى عصر الكونية أو الجلوبلية.. أى فى عصر اتصلت فيه الأرض بالسماء عبر الأقمار الصناعية.. فهو عصر أكبر من الأرض.. من الدنيا.. من العالم.. وفى هذا العصر أصبح المواطن فى أى مكان جزءا من الكون.. فى هذا العصر الذى يوصف بعصر انتقال المعلومات عبر الإنترنت والسوفت وير لم تعد الدول الكبرى تهتم باقتصاد المصنع.. ويمكن نقل المصانع إلينا.. وإنما تهتم باقتصاد المعلومات والمعرفة.. وهو مايتطلب التفاهم بلغات مشتركة.. وهنا اليابانية وحدها لاتكفى.. ولا العربية.. لكن ضعف اللغات الأجنبية فى اليابان ليس سببه التعليم فقط. وإنما إحساس اليابانيين بذاتهم وبكل مايعبر عنهم ايضا. فهم فخورون بلغتهم التى لايتكلمها سواهم.. مع أنهم أخذوا حروفها من الصين.. وهى متميزة ومعقدة.. يكتبونها بالطول.. وبالعرض.. حسب المزاج والورق المتاح.. ولو ترجموا كتابا يابانيا إلى لغة أجنبية وضعوا صفحة بلغتهم أمام صفحة من اللغة الأجنبية.. ولو أصدروا كتابا عنهم بلغة أجنبية كان من الصعب عليهم الا يضعوا لغتهم فيه.. ومن ثم يكن القهر باللغة اليابانية أيضا.

والأجانب يفسرون هذا الجنون بكل ماهو يابانى بعقلية الجزيرة أوالعزلة التى عاشوا فيها ولم يخرجوا منها إلا مؤخرا.. ويفسرونه بعقدة الخوف التى لاتهدأ.. فهم «جزر هزيلة» بالقرب منها حيتان كبيرة.. روسيا والصين.. أما الولايات المتحدة فهى فى اليابان فعلا.. عسكريا.. ومعنويا على الأقل.. بخلاف الخوف من الطبيعة.. لذلك هم يتمسكون بكل ماهو يابانى.. إنها غريزة البقاء.. ليس أمامهم سوى التعصب لبلادهم ولأنفسم ولتاريخهم ولحضارتهم ولبضائعهم.. ولو خف ذلك لذابوا وتلاشوا.

وهم يعرفون أن التعليم فى بلادهم تخلف وأن بعض الدول الآسيوية ستتفوق عليهم.. سنغافورة مثلا.. وكان أن قرروا إعادة النظر فيه.. فى برنامج من ست نقاط سيقلب اليابان تماما استعدادا لدخول القرن القادم.. إنهم لايكابرون.. ولايكذبون.. ولايخدعون أنفسهم.

ولكن لو رأيت الطالبات مثلى من نافذة الفندق لعرفت أن لامستقبل مشرقا لدولة إلا بالتعليم الجيد أنهن يأتين فى زى أشبه بزى البحرية الأزرق فى أبيض كل طالبة تحمل فى يدها حقيبتين.. واحدة للكل والأخرى لملابس الرياضة.. وهى شورت قصير ألوانه «موف» وتى شيرت أبيض.. وهن يعبرن الشارع بهذه الملابس بعد قليل ليدخلن صالة الألعاب المغلقة على الجانب الآخر بعد أن تشير المعلمة لهن بالعبور براية صفراء ستجدها منتشرة كثيرا فى اليابان يحملها المرشدون السياحيون وقادة أية جماعة من الناس تتحرك فى مكان عام.

إن هذه الأجيال الجديدة تعرف قيمة اللغة الأجنبية والسوفت وير والأتصال بالغرباء والأجانب والسفر إلى الخارج.. إن هذه المعرفة هى الانقلاب القادم فى اليابان ■



حب الوطن من طرف واحد!

لا يمل اليابانيون الكلام عن أيام الجوع والفقر والحرمان التي عاشوها ... يتحدثون عنها وهم يأكلون البان كيك والسالمون المدخن والكافيار والبيتزا والجاتوه... وهم يشربون الشمبانيا والساكي، مشروبهم المخمر من الأرز، والنبيذ الفرنسي الفاخر.

ولا يملون الكلام عن أوقات الخراب والدمار ومدنهم وبيوتهم وآثارهم التي تساوت بالأرض، في الحروب، وفي

الكوارث... إنهم يتذكرونها وهم يبنون شوارع متعددة الأدوار، وناطحات السحاب، وكبارى عملاقة معلقة، ويحفرون أنفاقا لعدة كيلو مترات فى بطون الجبال لتخترقها قطارات تنطلق مثل الرصاصة .

ولا يملون الكلام عن زعمائهم القدامى، ويرددون أسماءهم وكأنهم آلهة، أو نجوم فى السماء، أو كأنهم مازالوا على قيد الحياة.. هم مجانين تاريخ. وهم يفعلون ذلك وهم يطاردون المستقبل، إنهم ليسوا أقدم حضارة ولا أقدم تاريخ.. لكنهم أقوى ذاكرة.

نحن أقدم حضارة وأضعف ذاكرة... قالها وكتبها الكاتب الموهوب الذى هضموه حيا وميتا صلاح حافظ... وهى عبارة صحيحة.. الدليل عليها هو أننا نسينا صلاح حافظ نفسه.

والمثل الذى يقول: «من فات قديمه تاه» هو مثل يابانى، لا مثل مصرى... فهم لم ينسوا... لم يتوهوا... لم يتوهموا... لم يضلوا الطريق تحت أقدامهم.

إنهم مثل باقى شعوب آسيا، وعيهم شديد بالماضى، وهم ينظرون لأنفسهم من منظور تاريخى «فإذا ما أرادوا تحليل خصائصهم المعاصرة فسوف يبحرون فى تاريخهم على امتداد ألف سنة أو أكثر»..

ويندهشون عندما يسألوننا عن جمال عبد الناصر، وثورة يوليو، وهزيمة يونيو، وأنور السادات، وحرب أكتوبر، وحادث المنصة، فنقول لهم: يااااه هذا

زمن انقضى ومضى.. «احنا ولاد النهاردة» .. ولابد أن نشعر بالكسوف عندما يسألوننا: ومن أين جاء «النهاردة» ؟ هل هو ابن حرام؟

فى مبنى بلدية طوكيو أجهزة فيديو تروى للناس كيف كانت طوكيو «خرابة» كبيرة بسبب قنابل الطائرات الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية التى لم تمتلئ بالبارود فقط وإنما بالقسوة والغل والانتقام أيضا... ويظهر اليابانيون فقراء، ينامون فى العراء ويغطون أسطح القطارات، وينبشون فى الأرض بحثاً عن النمل والديدان ليأكلوها... أما الأشجار فعارية من الأوراق أيضا... أكلوها كذلك... ومشهد مهين جدا.. منتهى الإهانة... جندى أمريكى يمسك بكبشة طعام فى راحة يده ويبتسم فى شماتة وعشرات الأطفال يتجمعون حوله مثل القطط الضالة... وهو مشهد وقع بعد استسلام اليابان.. فى خريف ١٩٤٥.

وفى متحف طوكيو أفلام نادرة تصور الخراب الذى أحدثه زلزال سبتمبر ١٩٢٣ الذى جعل العاصمة على الأرض.. إنهم يرفضون النسيان.. فهذا الخطر قائم ويمكن أن يقع فى أى وقت... وقد وقع فيما بعد فى مدينة تسمى «كوبى» وقد اعتذر محافظها عن استقبال الوفود الرسمية التى جاءت لتعزيته فقد كان يرتدى ملابس الدفاع المدنى وهو على رأس فرق الإنقاذ... أما المسئول عن الإسكان فقد انتحر لأنه لم يف بوعده ولم يسلم الناس البيوت فى الموعد المحدد... عنده دم.

وفى متحف هيروشيما، شاهدت أسوأ جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان منذ خلق الله الأرض ومن عليها.. منذ خلق الشر... إلقاء القنبلة الذرية..

إن هذه المدينة التى دفعت الثمن لاتزال تتذكر ماجرى ليس نيابة عن اليابانيين فقط بل نيابة عن البشر جميعا أيضا.

إنهم لم ينسوا ذلك كله. ولن ينسوا وهم ينشطون ذاكرتهم بزيارة المتاحف التى تزدحم بهم بنفس الكثافة التى تزدحم بها محلات البيتزا فى القاهرة.. وفى اليابان ٣٢٢٥ متحفا للتاريخ، و ١٥٠ متحفا للتاريخ الوطنى، و٤٦٢ متحفا للتراث وروادها من الأطفال والمرهقين ... وهذا مفهوم .. وكبار السن والعجائز الذين جاء بعضهم على كراسى متحركة... وهذا مذهل!

وفى المدارس يتعلم التلاميذ أن بلادهم بنيت بالعرق والدم... بالجوع والدموع... فلا يجوز التعامل معها باستهتار أو إهمال... والتلاميذ استوعبوا ذلك وترجموه إلى نظام ونظافة... فلو وجدوا ورقة شجر أو عقب سيجارة أو زجاجة فارغة التقطوها من الأرض وحملوها إلى مكانها الطبيعى...فوجئت مرة بمعلمة وبعض الطالبات فى حديقة عامة فى درس على الطبيعة عن النباتات... وجدتهن يمسحن التراب عن أوراق الشجر وهى فى فروعها سيسخر البعض منا. وسيتعجب البعض الآخر.. لكن سنظل نذبح الخضرة. مع أننا أول من عرفها.

لقد غنينا لحب الوطن.. واعتبرناه فرضا علينا.. نفديه بارواحنا وعيوننا.. وغنينا لمصر التى «فى خاطرى وفى فمى».. وغنينا... وغنينا.. واكتفينا بالغناء..

وفى البيوت لاتكف الأم عن تلقين أبنائها فضيلة الادخار.. الين الأبيض ينفع فى اليوم الأسود.. ووجبة واحدة من الطعام تكفى.. والحرام والعار

والجريمة والفضيحة أن يبعثروا النقود دون أقصى استفادة منها.. لامانع من الاستمتاع، لكن فى الوقت المناسب، وبالقدر المناسب... إن الطعام الذى تضعه أسرة متوسطة مصرية على المائدة فى يوم يكفى لاستهلاك أسرة يابانية متوسطة فى أسبوع... أما فى رمضان فطعام يوم واحد يكفى الاسرة اليابانية فى شهر.. مع أن دخلنا واحد على ٥ من دخلهم ... وفى أسلوب حياتنا أن الطعام يجب أن يكون أزيد من الحاجة... ومن العار أن نأكل كل ما يقدم إلينا... وهم لا يفهمون ذلك.

فى القطار.. الرصاصة الذى حملنى إلى هيروشيما طلبت وجبة خفيفة من الطعام واكتشفت وجود قطعة صغيرة جدا من لحم الخنزير... فتركتها... لكن عاملة المطعم لم تفهم تصرفى... هل الطعام فاسد؟.. ما الذى تفعله بهذه القطعة.. كيف تلقيها فى القمامة؟... هل أنا مجنون لأدفع نقودى فى أشياء يكون مصيرها القمامة؟.. وتدخل مفتش القطار.. وانتبه الركاب.. ولم أعرف كيف أخرج من المطب سوى أننى وضعت قطعة اللحم فى منديل ورقى ثم وضعتها فى جيبى... واستراح الجميع.. وأنا أيضا استرحت!

إن كل شيء فى اليابان له قيمة... يجب الاستفادة منه إلى أقصى حد... لا إهدار للموارد... ولا حتى للنفايات... الزبالة والمجارى.

كنت على موعد لزيارة محطة تليفزيون «فيوجى» وهى محطة مستقلة، تقع فى ضاحية بعيدة عن العاصمة... كانت هذه الضاحية مساحة من الماء ردموها بأطنان الزبالة حتى أصبحت أرضا صلبة بنوا عليها ناطحات سحاب... وفى هذه المبانى نظام مركزى لتجميع القمامة... ثم تنقل فى

سيارات مغطاة إلى محرقة لاستخدامها فى توليد الكهرباء... وحتى أصل إلى هذه الضاحية، ركبت قطارا بلا سائق من محطة شمباش... والقطار ليس عريضا... يتلوى مثل الدودة على قضبان معلقة... وفى الطريق أشار مرافقى إلى مبنى أنيق يصلح سفارة أو فندقا خمس نجوم وسألنى:

ـ هل تخمن ماذا يكون هذا المبنى؟

ـ فندق؟

ـ لا.

ـ سيارة؟

ـ لا!

ـ مبنى محطة التليفزيون التى سنزورها؟

ـ لا!

ـ غلب حمارى!

ـ هو مبنى محرقة القمامة!

ولأننا وصلنا قبل الموعد بحوالى نصف ساعة اقترح المرافق أن نزور مكانا قريبا.. سيدهشنى.. وأعترف بأننى أصبت بالقرف منه... ورفضت الزيارة... لكن المرافق لم يكف عن محاولة إقناعى... حتى اقتنعت مجاملة له.. فالزيارة لمحطة تنقية المجارى... لاتمسك أنفك... ولاتسد فمك.. فالمبنى أكثر أناقة ونظافة من مبان كثيرة تبدو لنا أهم... برج مكون من سبعة طوابق... ينتهى بمطعم ... نعم مطعم... فالتحدى هو أنك لن تشم رائحة أبدا

وستنسى أين أنت... وستتناول طعامك باستمتاع... بجوار المطعم محطة إلكترونية للتحكم فى المجارى، ومعرض للطوب الصلب الذى صنعوه من مخلفاتهم ومتحف يشرح للأطفال بطريقة جذابة تناسبهم أهمية نقطة المياه.. وفى البدرم ماكينات التنقية أما خزانات المجارى الخام فتحت الأرض على الجانب الآخر من الطريق وفوقها ملاعب تنس... وفى المبنى أيضا صالات العاب وحمامات سباحة مغطاة ساخنة... ومياه المجارى بعد تنقيتها تستخدم فى الزراعة وفى الصرف الصحى.. وقالوا لى: أنها تصلح للشرب أيضا... وعندما ظهرت على وجهى علامات القرف... أضافوا: اليابانيون أيضا يقلون مثلك.. لكنها مشكلة نفسية ستتغلب عليها!

إنهم مثل اليهودى الذى نزل دمياط، وطلب أن يأكل ويشبع ويتسلى ويطعم حماره ولايدفع سوى خمسة قروش، فقالوا له: اشترى بطيخة.. تأكل قلبها فتشبع.. وتقزقز لبها وتتسلى.. وتطعم الحمار القشر فيهدأ.. فترك اليهودى دمياط.. فلاعيش له فى بلد أهله بهذه الدهاء.

واليابانيون بهذا الدهاء وأن كان لايبدو عليهم، وهذا يضاعف من دهائهم.. فهم يستمعون جيدا، ويسألون كثيرا، ويبتسمون وينحنون أكثر، ثم إنهم يشفطون ريقهم بين كلمة وأخرى، ولا يتركون التفاصيل، ولا يأخذون قرارا بسرعة.

وهم لايدعون أنهم يعرفون كل شيء.. فالذى يعرفه الواحد منهم هو ما يجب أن يعرفه فقط.. لاما يجب أن يتكلم فيه.. ولا أحد يجرؤ على الجزم بأنه متأكد مما يقول... ثم إنهم يذهبون ويعودون أكثر من مرة... فهناك من هو أكبر يجب استشارته وسماع رأيه وقراره... ولو كان هذا الكبير حاضرا لتكلم هو ولسكت الأصغر تماما وكأنهم غير موجودين... إنها أبرز

خصائصهم... احترام الكبير... رب الأسرة... رئيس العمل... رئيس الوزراء.. والإمبراطور طبعا.

في يوم اعصار التيفون كنت أتناول طعام الغداء بدعوة من سفير ياباني سابق عرفته في القاهرة في بداية السبعينيات كان ملحقا في بداية حياته الدبلوماسية، وكنت شابا في بداية حياتي الصحفية وأسعده أن نلتقي بعد كل هذا العمر.. وأسعدني أكثر أنه ترجم بعض أعمال نجيب محفوظ إلى اليابانية واسمه هاناوا.

بعد الغداء كان علينا أن نذهب إلى يوكوهاما لكن كان من رأى السفير أن الإعصار شديد يمكن أن يوقف القطارات... ولم يعبر مرافقي الأصغر سنا عن رأيه.. إلا عندما تركنا السفير ... فقد كان رأيه أن تعطل القطارات لايمنع استخدام السيارات.

واليابانيون لا يغلقون كل الابواب ولا كل النوافذ... ويميلون للحل الوسط.. لأن الفرد لا قوة ولاقيمة له إلا في إطار الجماعة... العائلة... الشركة.. الدولة.. ويندر أن نجد يابانيا يقول: أنا... أنا الذي فعلت... أنا الذي اخترعت.. فواحد + واحد + واحد في اليابان يساوي عشرة ولو أضفت واحدا آخر كان المجموع ١٥ ولو أضفت واحدا جديدا كان المجموع ٣٠ على الأقل.

إنهم مثل خلية النحل... لا أحد يحسب ما أضافه الكل يحسب ما فعلوه جميعا... معا.

إنها حضارتهم وثقافتهم التي تقوم على المواجهة الجماعية للأخطار

والكوارث والتى جعلتهم يضعون أنفسهم أمام الآخرين... يقولون عن أنفسهم «نحن» وعن الآخرين «هم»!

إن السلطة الأبوية على جميع المستويات لاتزال مؤثرة رغم المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة... وهو مايعنى أن منطق العائلة لايزال ساريا.. سائدا.. ويسمى اليابانيون رئيس العمل أو يابوم... أى «فى مقام الأب».. ويسمى المرءوس «كوبوم» أى مقام «الابن»... أما كلمة «أوشى» فمعناها أحيانا البيت.. وأحيانا أخرى الشركة.

لقد انتبه أدوين رايشاور فى كتابه «اليابانيون» إلى هذه الحقيقة.. وانتبه إلى حقيقة أخرى تقول: «إن الوظيفة فى اليابان لا تعتبر مجرد نظام (أو وسيلة) من أجل الحصول على المال أو على أجر ثابت لكنها بالنسبة للمواطن اليابانى تعنى تحديد هويته داخل كيان اجتماعى أكبر... وبمعنى آخر تمثل الوظيفة له شعورا بالرضا لأنها جزء من كيان أكبر منهم... إنها تحقق له الأمان والشعور بالفخر والولاء للمؤسسة التى يعمل فيها» ولا يتركها إلا إذا تقاعد أو مات ... وهم يغنون للشركات التى ينتمون إليها.. ويظهرون شاراتها على ملابسهم وملابس أطفالهم.. والشركة من جانبها تحقق لهم الحماية والأمان... ولعل أهم مكتب فى أى شركة يابانية هو مكتب شكاوى العاملين.. إن الشكوى والإنصاف من حقهم... لاالعقاب والقسوة وربما التشرد كما يحدث عندنا لو اشتكى عامل أو موظف شركته أو الحكومة... فعلى قدر ما تعطى الشركة أو الحكومة أو الدولة تأخذ.

إن الوطن الذى يمنحنى الأمان أموات فى سبيله.. ولو أشعرنى بحريتى رفعته فوق رأسى.. لا حب من طرف واحد... ولا انتماء من طرف واحد.

لهذا. تشعر الزوجة اليابانية بالخزى والعار لو عاد زوجها قبل موعده من العمل... فهذا معناه أنه ارتكب جريمة، وطردوه .. لاتفسير أخر لأنه لو كان مريضا لكانت الشركة قد نقلته بنفسها إلى المستشفى وأشرفت على علاجه.

ولو فسد موظف وانكشف اعترف فورا وخر راكعا.. وأفضل من الفضيحة والمحاكمة... الانتحار.. لامقاومة ولابجاحة ولا مستندات مزورة... فالضمير حتى عند اللص أكثر استيقاظا من متاهات المحاكم ومحاورات المحامين.

ففى اليابان عبارة شهيرة هى «حفظ ماء الوجه» وأصلها من الصين... والمقصود بها الحفاظ على السمعة.. وهى قيمة حضارية ثقافية أخلاقية تقى المجتمع كثيرا من الشرور... ثم إنه أهم من براءة القانون براءة المجتمع.. فلا يكفى لاسترداد ماء الوجه حكم المحكمة... إنما حكم الناس.

وليست اليابان المدينة الفاضلة.. فالفساد عندهم أكبر وأضخم.. الفساد بملايين المليارات... خاصة فى البنوك... التى تمنح قروضا بلاضمانات... وهناك جريمة اقتصادية أخرى هى الابتزاز فى الجمعيات العمومية للشركات المساهمة... وهى أن يهدد بعض حملة الأسهم بالشوشرة على الشركة فى جمعيتها العمومية لو لم يدفعوا لهم.. والشركة تدفع أحيانا حماية لسمعتها ولأسهمها من الانهيار... وهناك شبكات الجريمة المنظمة.. ولكن.. وسائل كشف الفساد متاحة، وعقاب الفاسدين ـ مهما كانوا ـ واقع... ثم... إن اليابان هى البلد الوحيد فى العالم الذى حقق حلمى بالتسكع ليلا فى الشوارع دون خوف.

وطبيعى جدا أن يستغل الناس فى اليابان كل ماعندهم.. فما عندهم قليل.. نادر.. وغير الطبيعى الايستغلوا كل مايستوردونه، فما يستوردونه يدفعون فيه الكثير.. إن بلادهم معدومة الموارد فقيرة جدا.. مواردنا نحن لاتقارن بهم. والأرض ضيقة.. لو سكنوها ماتوا من الجوع... ولو زرعوها اختنقوا من الزحام... فلا مفر من الحلول الوسط والحلول المبتكرة لكى يسكنوا الأرض ويزرعوها وجاءت الحلول المبتكرة بالتكنولوجيا المتطورة التى استوعبوها وأضافوا إليها.. واستخدموها فى تصغير الأشياء... أو فى ارتفاع المبانى إلى أعلى على قواعد كاوتشوك متحركة، راقصة، تجعلها تتمايل مع الزلازل!

إن تصغير الأشياء ضرورة فرضها ضيق المساحة فى اليابان... البيوت ممزقة والشوارع مخنوقة ... والناس من حسن الحظ نحيفة... البيت الذى تسكنه أسرة متوسطة ويصل إلى ٦٠ مترا مربعا هو بيت رحب بكل المقاييس اليابانية... ومن ثم فالأبواب منزلقة حتى لا تأخذ مساحة فى فتحها.. والسراير تدخل فى الحائط لتتحول غرفة النوم فى الصباح إلى غرفة معيشة... وتتحول بعد الظهر إلى غرفة مكتب وفى هذه الظروف كان لابد من تصغير الأشياء الراديو... والكاسيت... والثلاجة... والتليفزيون وكاميرا الفيديو حتى لا تأخذ مساحة كبيرة وتجور على المساحة التى يعيش فيها أصحابها .

لقد كان على أن أنحنى كثيرا وأنا استخدم حوض الحمام فى غرفتى بالفندق وهو حوض صغير جدا ... وكان البانيو يكفينى بالكاد... رغم أننى لست من حزب شجرة الجميز... وعندما كنت أرتدى ملابسى كانت أصابع يدى تخبط فى سقف الحمام... وفى الكافيتريا التى تعودت أن

أشرب فيها قهوة الصباح لاتزيد المنضدة على مساحة كراسة الرسم وهى لاستعمال أكثر من شخص... أما المقعد فيصلح أكثر للأطفال ويجبرك على أن تجلس وأنت تفتح ساقيك .. وهو عذاب للفتاة المهذبة التى ترتدى الميكروجيب... لكنه سعادة للشاب الذى يجلس أمامها.

وأغلب المطاعم اليابانية صغيرة... وعدد المطاعم هناك ٤٩١٣٥٩ مطعما تحقق مكاسب ٨٨٨٧ بليون ين.... معظمها ٣×٥ أمتار فقط... ولا تسع لأكثر من ١٠ زبائن .. يجلسون وهم يلتفون حول الطاهى الذى هو السفرجى أيضا.. وأغلبها أيضا بيزنس عائلى.. الأب والأم والأولاد يملكونه ويعملون فيه.

والأطباق التى تقدم بعيدا عن المطبخ اليابانى صغيرة كذلك.. البيتزا فى حجم الكف.. ورفيعة جدا.. وطبق السلاطة لايزيد على ورقة خس وشريحة طماطم وشريحة خيار.. والخبز طلب مستقل.. شريحة توست أكثر سمكا مما نعرف.. وهم يأكلون كل الأطعمة التى يأكلها الناس فى أربعة أنحاء العالم.. تجاوزوا عصر الأرز والسمك. رغم أنه لايزال الوجبة الرئيسية عندهم..

فالأرز اسمه جوهان ومعناها فى اللغة اليابانية «وجبة الطعام» وهو يؤكل مسلوقا بدون سمن مع أسماك غير مطهية غارقة فى سائل مستخرج من فول الصويا.. وعند تخميره يصبح الأرز مشروب «الساكى» وهو مشروب الكحول الوطنى.

ولايزال الأرز يزرع بغمره فى المياه وفى بداية موسم زراعته ينقل التليفزيون مشهدا للامبراطور وهو يضع أول شتلة فى قصره.. لمدة ثوان. ويندر أن يظهر الإمبراطور على شاشة التليفزيون فى مناسبات أخرى.

ويزرع الشاى الأخضر على المرتفعات ويزرع الخضار فى صوبات، وفى البحار تنتشر مزارع الأسماك والحيوانات البحرية، خصوصا القواقع وثعبان البحر.

ولم يعرف اليابانيون اللحم إلا فى وقت متأخر.. والسبب الديانة البوذية التى تحرم ذبح البقر ونقص مساحة الأرض للمراعى.. وهم يربون الأبقار للذبح.. فلا تعمل فى الحقول.. ولا تكون عضلاتها قوية... ويمكن أن تشرب البيرة وتسمع الموسيقى لذلك فلحمها شهى، طرى، لكنه غال جدا.

ومؤخرا عرف اليابانيون لحم الخنزير والجبن ومنتجات الألبان والقهوة والسكر والويسكى والطعام والشراب من مختلف الألوان والأصناف والجنسيات.. فقد أصبحوا أغنياء.

وقد حذرنى كل من سافر إلى اليابان من الطعام اليابانى... وحذرونى من رفضه لو قدموه لى... فالرفض جليطة وإهانة وقلة أدب.. ووجدتنى مضطر لقبول دعوة عشاء فى مطعم يابانى وصاحب الدعوة مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط أما الذى حضرها فهو تاكوناتسو منسق العلاقات فى قسم الشرق الأوسط وكان هناك أيضا دبلوماسى مصرى موهوب هو عمرو حلمى ودبلوماسى يابانى شاب يعمل فى القسم الخاص بمصر.. جلسنا فى مكان خاص... على شكل نصف دائرة.. وجاءت المضيفة بالكيمونو وبالفوط الساخنة... وأمام كل منا وعاء مسطح من الخزف لوضع الطعام وصينية عليها ملح وفلفل وليمون ... وأمامنا جميعا طاه يقوم بالقلى ويقدم لنا أنواعا مختلفة من الأسماك والجمبرى ولكن بكميات قليلة... ولم أجد مبرر للتحذير الذى سمعته.. فالطعام مقبول..

وطازج وشهى.. وعندما أعلنت أجتيازى لهذا الامتحان الذى أعتقد أنه سيكون صعبا سخروا منى.. ووجدت من يقول أن ما أكلت ليس أكلا يابانيا .. إنه طعام على الطريقة البرتغالية... البرتغاليون هم الذين علموا اليابانيين قلى السمك عندما وصلوا اليابان فى عام ١٥٤٣ ... لقد جاءوا بزيوت القلى وبالتبشير بالمسيحية.

أما الامتحان الامتحان فكان فى كيوتو... فى مطعم صغير جدا لا يسع أكثر من ٧ أشخاص، يعمل فيه رجل وزوجته.. ووجدت أمامى شرائح السمك النيئ... وأكلت بعضها واعتذرت عن معظمها.. لكن .. كان صاحب المحل أكثر كرما عندما عرف أننى مصرى وأننى أعرف الأستاذ محمد حسنين هيكل الذى يتابع مقالاته التى تنشرها باليابانية جريدة ميمورى الأكثر انتشارا... والرجل لطيف... يعمل ويشرب ويأكل مع الزبائن... وإذا ما أحبهم وشعر أنهم يحبونه أخذ نصف الثمن وأصر على أن يلف لهم ما باقى من طعامهم.

الأصغر من هذا المطعم، المطاعم الموجودة فى زقاق فى طوكيو بالقرب من محطة سيشنجو المشهورة بناطحات السحاب، وهو زقاق ضيق جدا، ظل على حاله منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية... أى قبل تحديث اليابان... لايمكن أن تمشى فيه إلا بمفردك... وعلى الصفين مطاعم وحانات ميكرو.. عرض المحل حوالى المتر، نصفه للمطبخ وتجهيز الطعام ونصفه الآخر لجلوس الزبائن وهم يجلسون على رف واحد من الخشب عرضه لايزيد على ٢٠ سنتميترا.. وطول المحل حوالى المترين.. وعلى بابه شوايات لحم الدجاج والخنزير وقد اختصروا قطع اللحم إلى قطع صغيرة فى حجم الفول

السودانى بقشره ووضعوه فى سيخ خشبى.... فى كل سيخ ٤ قطع فقط.. ولايسع المحل سوى لخمسة أشخاص وزوجة صاحب المحل تنادى على زبائن آخرين لا تعرف أين يمكن أن يجلسوا؟ .. بل أنت نفسك لا تعرف وأنت جالس كيف تجلس!، فما لك من مساحة لايزيد على مساحة الكراسة أو الكشكول.. تأكل وتشرب وتدخن وتتحرك فيها.. ولا يمكن أن تتحرك إلا مكتوف اليدين وإلا وجدت كوعك فى جنب الجار الذى يجلس إلى جوارك.

وحتى لا تخطئ الطعام اليابانى فإن الطبق المصنوع على الطريقة البرتغالية يسمى تمبورا... وشرائح السمك النيىء تسمى ساشيمى... ولو وضع الساشيمى على كرة صغيرة من الأرز المتبل بالخل أصبح اسمه سوش.. أما الدجاج المشوى بالعصى الذى تناولته فى زقاق الحرب العالمية الثانية فهو الياكيتورى.

ويجب أن أحدثك عن الملوخية.. الأكلة المصرية الشهيرة فى اليابان... إنهم أخذوها وحللوها واكتشفوا أنها غنية بالفيتامينات خصوصا فيتامين ب كومبلكس.. الذى لو تناولته مع الفجل اليابانى الأخضر الحار (واسابى) لتضاعفت طاقتك وحيويتك الجنسية.

وهم يستوردون الملوخية ويزرعونها ويدافعون عنها فى جمعيات خاصة. وهذه هى طبيعة اليابانيين، يكتشفون فى الأشياء التى نعرفها خصائص لا نعرفها... فهم على سبيل المثال نجحوا فى استخراج دواء طبيعى، غير كيميائى، لعلاج فيروس (C) المسبب لالتهاب الكبد والوبائي من نبات العرقسوس المصرى. وتلافوا بهذا الدواء المنتشر الآن الآثار الجانبية التى تزيد

على ٤٠٪ للدواء الذى تصنعه شركات الأدوية الغربية وهناك أدوية بدون آثار جانبية أيضا لعلاج بعض أنواع السرطان... إن عقلية اليابانيين وحضارتهم الآسيوية وثقافتهم التى تقوم على التوحد مع الطبيعة تتحول إلى أدوية مختلفة للعلاج... لكننا لا ننظر إلى الشرق!

وتقدم الملوخية بطرق أخرى غير التى نعرفها وبدون تقلية تؤدى إلى التخمة والنوم والكسل.. إنها ثقافة الملوخية التى نأكلها ولا نعرفها!

والمطاعم ليست وحدها الصغيرة المقاهى... وبعض المحلات أيضا.. ووراء انتشار ذلك ليس فقط ضيق المساحة وإنما سيادة ما يعرف بعقلية البيزنس االصغير... أو البيزنس العائلى... إن اليابان ليست كما هو معروف شركات عملاقة فقط ... فهذه عددها لا يقارن بالنسبة لعدد الشركات الصغيرة التى يعد انتشارها الواسع أبرز عناصر نجاح التجربة الاقتصادية اليابانية... حوالى ٦٠٪ من الاقتصاد اليابانى بيزنس صغير.. وهذا ماقاله رئيس الحكومة فى الاحتفال بمرور ١٢٥ سنة على إنشاء غرفة التجارة.

وهناك ـ كما قالت لى السفيرة ميرفت التلاوى ـ ٦ مؤسسات كبرى لحماية الأعمال الصغيرة... منها بنك للتمويل.. ومؤسسة للاستشارات.. ومؤسسة للتأمين ضد الإفلاس.. ومؤسسة لدراسات الجدوى.. ومؤسسة للتجميع والتصدير.. ومؤسسة للترويج والدعاية.

وعموما يعمل السفراء والدبلوماسيون السابقون فى مجالات الترويج والدعاية والتصدير لأنهم أقدر من غيرهم على فهم طبيعة الشعوب التى يصدرون إليها.

وأجمل ما رأيت فى هذا النوع من البيزنس... مصانع صغيرة لإنتاج الحلوى والكيك تعمل أمام الزبائن.. فول أتوماتيك.. ثم تدعو الناس على قطعة منها وفنجان شاى بدون مقابل... أو مقابل أن يكون الشخص عنده دم.. ويشترى علبة حلوى .. ويقول لهم أونيجايشيماس أو من فضلك .. أو يقول أوياسوميناساى.. أى تصبحون على خير... والآن أقول لكم أنا أيضا أوياسوميناساى ■

٤

يكرهون البقشيش ويعشقون الهدايا

عندى أمنيات صغيرة فى السفر.. أن أمشى تحت المطر.. وأتوه فى الشوارع وفى ملامح البشر.. متلافيا مرض الحنين للوطن والضجر.. وأن أشعر بالأمان بعد السهر.

وقد حققت أمنياتى الصغيرة فى طوكيو.. فقد زرتها فى شهر يونيو.. فى بداية موسم الصيف.. وهو موسم الأمطار الخفيفة التى لاتنقطع.. والحرارة مقبولة.. لكن المشكلة فى الرطوبة.. وهى خانقة، تشعرك بمزيد من السخونة.. ومن ثم لم أستمتع بالمشى تحت المطر.. فقد تفجر مطر من نوع آخر من جسدى.. العرق.

وحاولت أن أتوه فى الشوارع والضواحى.. أركب مترو لا أعرف أين يذهب.. واستبدله بآخر حتى نهايته.. إنها وسيلتى السهلة للاقتراب من الناس.. والتعرف عليهم بعيدا عن العيون الرسمية.. لكن.. حاجز اللغة كان عائقا.. اللسان مقطوع.. والاتصال مرفوع.. وخوفهم الغريزى من الأجانب يضعك دائما فى خانة الممنوع.

وقد كنت أضع خريطة بموقع الفندق، البيانات المكتوبة عليها باليابانية.. كنت أضعها فى يد سائق التاكسى ليوصلنى فى النهاية حيث أنام.. وأذهلنى أن سائق تاكسى أوقف العداد عندما أخطأ فى دخول الشارع المناسب.. فلايجوز أن يخطئ وأنت تدفع الثمن.. ثم.. بصراحة لماذا يسرقك وهو يأخذ ١٠ دولارات فى مشوار لايزيد على ٤ محطات أتوبيس.. ويحقق التاكسى حوالى ما بين ٣ و٥ آلاف دولار فى اليوم، نصيب الشركة التى تملكه ٦٠٪ والباقى للسائق الذى يعمل يوما كاملا ويستريح اليوم التالى.. والأفضل أن تستعمل التاكسى الذى يملكه سائقه لأنه أكثر خبرة.. فلا أحد له الحق فى امتلاك سيارة أجرة إلا إذا كان سائقا محترفا لمدة ١٠ سنوات على الأقل.. لم يرتكب خلالها مخالفة واحدة.. لكن.. يصعب الحصول على ترخيص تاكسى خاص بسبب الزحام الذى ينافس الزحام فى القاهرة وإن كان زحاما بلا صخب أو فوضى.. ويمكن نقل ترخيص من شخص إلى آخر.. لكن مقابل خلو رجل يزيد على مليون ين أو ١٠٠ ألف دولار وأعترف بأننى لم أشعر بالأمان فى بلد مثلما شعرت فى اليابان.. حتى فى عز الليل.. وفى الأحياء الخلفية.. حيث الاستعراضات العارية والأخلاق العارية.. كنت أمشى بمفردى.. بكل ما أملك.. ولا أشعر بالخوف.. بل

ربما كان اليابانيون هم الذين يشعرون بالخوف.. فهم يتوجسون من الغرباء الذين يندر وجودهم فى النهار.. فما بالك فى الليل؟.

إننى لا أنسى كيف أستقبلتنى نيويورك استقبالا حافلا بمجرد خروجى من المطار.. فقد وجدت نفسى وسط حلقة غاضبة من ثلاثة شبان زنوج كانوا فى حاجة لمزيد من الخمر وقليل من الطعام.. ودفعت وأنا ساكت!.

ولاأنسى كيف كنت أمشى فى شوارع جوها نسبرج صباحا وأنا وسط «شلة» من الأصدقاء حتى نقدر على مواجهة الأخطار.. فهناك لايسرقون نقودك فقط وإنما ملابسك أيضا؟

لكن.. ذلك لايمكن أن يحدث فى اليابان.. فهى منتهى الأمان للإنسان مهما كان.. فالناس خرجت لتعمل لا لتسرق.. والفوارق الاجتماعية والطبقية معدومة.. ونسبة البطالة لاتزيد على ٣٪ وهى نسبة مزعجة لهم.. لاتسألوا الناس أسألوا الظروف.. والرقى الأخلاقى يسبقه ارتفاع فى مستوى المعيشة.. والفقر المادى يؤدى إلى فقر عقلى.. وفقر معنوى.. وفقر إنسانى.. وفقر عاطفى أيضاً.

لقد تجولت بعد منتصف الليل فى أحياء المتعة فى معظم المدن اليابانية التى زرتها ولم أشعر بالخوف.. فالأضواء ساطعة، راقصة، ملونة.. وعلى الأبواب رجال يتسمون بالأدب والأناقة يدعونك للدخول.. ويوزعون على المارة إعلانات فيها الأسعار.. وفيها صور عارية.. عينات لما يمكن أن تراه بالداخل.. أو هى عينات لتنشيط خيالك.. وفى الفاترينات مزيد من الصور والأوضاع والتوابل الحارقة.. والنساء الحراقة..

وما لفت نظرى وأنتباهى ودهشتى وأستغرابى وذهولى هو عدم الاعتراف بالبقشيش.. لابقشيش على الإطلاق.. لا أحد يقوم بعمله وينتظر منك أن تمد يدك فى جيبك وتعطيه بقشيشا.. أو تعطيه مما أعطاك الله.. أو تترك «الفكة».. أو «خللى الباقى علشانك».

لم أدفع مليما واحدا بقشيشا فى اليابان.. ولم ينتظر ذلك أحد.. لافى الفندق.. ولا التاكسى.. ولا المطعم.. ولم أتعرض لاستنكار... أو اشمئزاز.. أو اشمئناط.. أو اتهام بالبخل.. أو قلة الذوق.. بل قلة الذوق هى أن تترك بقشيشا.

جربت أن أترك بقشيشا بعد دفع الحساب فوجدت الاستغراب والحيرة فى الوجوه.. أتهمونى مرة بالجنون والسفه.. وأتهمونى مرة بأنى لص.. فالذى يحصل على المال بسهولة هو الذى يدفعه بسهولة.. ونفرت فتاة فى مطعم عروقها وحمرت عينيها.. وسألتنى: ماذا أريد منها بالضبط؟.. فقلت: أستغفر الله.. لا أريد منك شيئا!.. فقالت غاضبة: ولماذا تترك نقودك هكذا؟.. قلت: إنه البقشيش.. التقدير الشخصى لأسلوبك فى الخدمة؟.. قالت: وفر نقودك لنفسك.. فأنا أحصل على أجرى مقابل عملى.. والبقشيش إهانة.. أو دعوة لشئ آخر لا أقبله!..

وحتى لاتكون فضيحتى بجلاجل، أخذت البقشيش ووضعته فى جيبى، وحرمت وتبت.

ولم أشأ أن أقول للفتاة أن البقشيش فى بلادى أهم من الأجر، وأن فى مهن كثيرة يعمل الناس بأجر قليل لأنهم سيحصلون على بقشيش كبير.. وأن الذى لايدفع البقشيش لايحصل على حقوقه.. ولا على الاحترام

والإعجاب.. وانه على قدر البقشيش تتحدد مكانة الشخص الاجتماعية والاقتصادية.. والمعنوية.

ولم أشا أن أقول لها أن البقشيش وباء عالمى مثل الإيدز.. وأننى تركت بقشيشا فى مطعم فى لندن لم يعجب الجرسون، فتعمد أن يلقى به على الأرض بجوار حذائى.. فما كان منى إلا أن صفقت الباب بعد أن خرجت.. جليطة منى مقابل سفالة منه!..

واليابانيون الذين لايعرفون البقشيش يموتون فى الهدايا.. إنها أقصر الطرق إلى قلوبهم وعقولهم.. وهم يسعدون بها كثيرا ولايفتحونها أمامك..

فهذا عيب.. على عكس الشعوب الأخرى التى ترى أن العيب ألا تفتح الهدية التى تتلقاها فورا وتبدى إعجابك بها.. والأجمل من الهدية فى اليابان البراعة فى لفها.. وتغليفها.. إنهم الأكثر براعة فى هذا الفن.

أشتريت فنجانا من الخزف الأزرق فى أسود فانحنت البائعة وأنا أشير إليه، وانحنت وأنا أدفع ثمنه.. لكن بين الانحناءتين انشغلت هى وأخرى فى لف الفنجان.. وضعته فى صندوق يسع فازة.. ووضعت قشا وشرائط ورق ملونة، ثم وضعت شرائح من الكرتون السميك، ثم أغلقت الصندوق ولفته بورق الهدايا، ثم لصقت وردة وفراشة، ثم لصقت ورقة بيضاء صغيرة لتكتب عليها اسم من ستقدم له الهدية حتى لاتنسى.

إنها التفاصيل الصغيرة.. سر شهرة اليابانيين.. سر تفوقهم فى التكنولوجيا الحديثة.. التى جعلوها فى خدمة الناس لافى خدمة طبقة واحدة عليا.. إنها ديمقراطية التكنولوجيا.

لقد كان ايتوكا مؤسس شركة سونى مجرد فنى صوت، وظيفته تسجيل جلسات المحكمة العليا وقد شغله الناس وكيف يمكن أن يصبح جهاز الراديو فى متناولهم جميعا، خاصة فى مرحلة إعادة البناء بعد الحرب العالمية الثانية.. وقد نجح فى ذلك من خلال تكنولوجيا الترانزستور الرخيصة التى جعلت الفلاح يعلق الراديو فى الجرار وجعلت الصياد يعرف أخبار الدنيا وهو فى عرض البحر.

إن شعار التكنولوجيا للجميع جعل الشركة التى بدأت بعشرين موظفا، شركة متعددة الجنسيات يعمل فيها ٨٠ ألف موظف فى اليابان وفى خارجها، ويصل حجم مبيعاتها إلى حوالى ٥٠ مليار دولار فى العالم.

وقد حضرت اجتماعا لمديرى الشركة فى فروعها المختلفة وهم فى أماكنهم من خلال شاشة التليفزيون.. إنك ترى الآخرين وتناقشهم وهم على بعد آلاف الأميال.. يتبادلون المعلومات ويأخذون القرارات.. ويوفرون الوقت ولايتجاهلون أى شخص أو مسئول بحجة أنه مسافر أو فى بلد آخر.. أن من الممكن عقد اجتماع لـ ٢٠٠ مسئول فى أربعة أنحاء الكرة الأرضية، ويسهل ذلك الكابلات البحرية.. وهو نظام تفضله شركات الطيران لسرعة الإنجاز.. والقرار.. ولايكلف أكثر من ١٨٠ ألف دولار.

ورأيت الفيديو سينما.. أى عرض فيلم فى شريط فيديو على شاشة سينما بوضوح مذهل.. يتحكم فيه جهاز ريموت كنترول فى حجم علبة البودرة التى تستعملها النساء.. وفى اليابان يستخدمون هذا الاختراع فى الميادين والمراكز التجارية.. فمن المكن أن تشاهد نشرة الأخبار على شاشة فى حجم شاشة السينما.. فالناس يجب أن تعرف ما يحدث أولا بأولا بأول.. وفى القطارات وسيارات الأجرة شبكة معلومات إلكترونية تعرض الأخبار أولاً

بأول وربما قبل أن تصل للراديو.. يعرفون آخر الأخبار وهم فى أى مكان.. ودون أن يسألوا بعضهم البعض.

والاختراع الأهم الذى رأيته هو الكومبيوتر الصغير الذى تضعه فى سيارتك ويتصل بالأقمار الصناعية، ليحدد لك خرائط الطريق، ومواقع الزحام، وأماكن الإصلاح، والطرق المغلقة، وأماكن الانتظار، والعناوين التى لاتعرفها وأقصر الطرق إليها.. وقد بدأ هذا النظام فى شوارع طوكيو فى سنة ١٩٩٠ ، وكان ثمن الجهاز حوالى ٤٠٠ ألف ين، ثم انخفض بعد أن أصبح ٤ ٪ من السائقين يستعملونه إلى ١٥ ألف ين، وسينخفض سعره أكثر كلما انتشر أكثر.

وقد أشتريت جهاز كاسيت يعمل بشريط «مينى» وهو شريط فى حجم ورقة البوستة ومعروف فى أسواقنا.. وتصورت أننى استخدم فى عملى الصحفى أحدث ما فى العصر من تكنولوجيا.. لكننى وجدت جهاز كاسيت يعمل بشريط حجمه ربع حجم الشريط المينى.. وقد أحسست بالغيظ.. لكنهم اليابانيون الذين لايكفون عن التطوير والتصغير.. ولايكفون عن إشعارك بأن جهاز التليفزيون أو كاميرا الفيديو التى دفعت فيها دم قلبك وفرحت بها قد أصبحت فى أقل من سنة موضة قديمة.. متخلفة.. وأحمد الله أننى من الذين يفهمون جيدا أن التكنولوجيا يجب أن تتوافق مع الإنسان بحيث يستوعبها ولاتبتلعه.. فهى وسيلة وليست غاية.. هى أسلوب يناسبنا لا أسلوب يناسب الآخرين.. الذين اخترعوها وطوروها.. والعبرة دائما وفى النهاية بالنتائج أو بالإنتاج.

فعندما تعانى دولة مثل مصر من البطالة فلا مبرر بالجرى وراء التكنولوجيا التى تلغى العمالة وتزيد من حدة البطالة.. الصين تدرك ذلك. وتفهمه وتستوعبه.. لكننا نشترى ماكينات طباعة تطبع مليون نسخة فى الساعة، فى حين لاتبيع أكثر الصحف انتشار نصف هذا الرقم يوميا.. ونحن لانقدر على استيعاب هذه التكنولوجيا غالبا.. ومن ثم ندفع ثمنا باهظا فيها ونحصل على نتائج أقل.. وخسائر أكثر.. إن الطائرة البوينج ٧٧٧ التى انضمت إلى الاسطول الجوى لمصر للطيران وعدت بها من طوكيو إلى القاهرة، طائرة مريحة، فيها مساج بالمقعد.. يجعلك تحتمل السفريات الطويلة المرهقة.. لكن حنفيات الحمامات تعمل بالخلايا الضوئية الأتوماتيكية.. التى تجعل الماء ينزل منها بمجرد أن تضع يدك تحتها.. لكن.. شيئا ما جعل الماء يندفع بمفرده.. وكان أن لجأ أحد المضيفين لتعطيلها.. لأنه لايعرف كيف يتعامل مع هذه التكنولوجيا المتطورة إلا بالفهلوة والحداقة.. كما أن المضيفين لم يتدربوا على استعمال جهاز الفيديو الموجود فى المقعد.. وبعض الركاب فتحوه وعجزوا عن إغلاقه.. وطاقم الضيافة أيضا. إننا دولة فقيرة.. نشترى التكنولوجيا بدمائنا قبل أموالنا.. فلا يجوز التعامل معها باستخفاف واستهتار.. وإلا كنا كمن يلقى بثروته فى الماء.. وإن كنا نفعل ذلك كثيرا.

وأخطر من التدريب .. الصيانة.. إن أجمل المبانى وأحدث الآلات يقصف عمرها لفشلنا فى الصيانة.. والصيانة هى المتابعة لما بنينا ولما أشترينا.. لكن.. لا أحد يتابع ولا أحد يصون.. وفى كل مكان وحدة للأمن.. وفى الوقت نفسه والمكان نفسه لاتوجد وحدة للصيانة.

فى أول مرة أستدعيت للتحقيق فى نيابة أمن الدولة العليا كان فى مدخل المبنى استراحة للمتهمين والمحامين .. وفى المرة الثانية بعد شهور كانت هناك نصف استراحة.. فنصف المقاعد الخشبية تحطم.. وفى المرة الثالثة بعد شهور لم تعد هناك استراحة.. أغلقت.. فأغلب الظن أن كل المقاعد الخشبية تحطمت تماما.. ولاميزانية للإصلاح والصيانة.. ومعظم من فى المبنى مشغول بتحقيق العدالة.. وربما لم أجد مثالا آخر لأن مبنى نيابة أمن الدولة هو أكثر مبنى حكومى ترددت عليه منذ أن صدقت أن فى بلادنا حرية صحافة.

إن اليابانيين هم «ملوك» التصغير والتطوير والتحوير والتغيير فى التكنولوجيا.. وهذه تهمتهم الكبرى بين كل شعوب الدنيا.. إنهم غير مبدعين .. غير مخترعين .. فلابد أن يبدأ غيرهم بالاكتشاف ليأخذوه، ويفهموه، ويغيروه، ليصبح فى النهاية أفضل من الأصل.. أى أنهم مقلدون تفوقوا على المخترعين.. لكنهم فى النهاية مقلدون.. فهم لم يخترعوا التليفون أو التليفزيون أو الكاميرا أو السيارة.. لكنك تشعر بالاطمئنان والثقة والراحة لو كانت هذه السلع وغيرها يابانية.. وربما أكثر من شعورك لو استعملت نفس السلع من البلاد التى اخترعتها.. ولعل السبب هو أن اليابانيين أضافوا على الأصل ما جعله شيئا آخر أفضل منه.. لكنهم فى النهاية ليسوا أصحاب الفكرة الأولى.. أو السلعة الأولى.. أو الضربة الأولى.

«ولاشك أن هذا الوضع طبيعى فى بلد مثل اليابان، لم يكن له اتصال وثيق ببقية العالم إلا حديثا، حيث كان منهمكا فى تعويض ما فاته من التكنولوجيا والأفكار».. وهو ما جعل اليابان ترسل البعثات إلى كل البلاد التى سبقتها ولو بخطوة لاستيعاب أكبر كم من المعلومات.. والمخترعات

الحديثة.. ومواءمتها مع ما يمتلكونه ببراعة فائقة حتى أصبحت التطبيقات اليابانية للتكنولوجيا الوافدة عمليات خصبة الخيال إلى الحد الذى قد يتصور معه إنها ابتكار يابانى حقيقى».

على أنه من جانب آخر تجاوزت اليابان التكنولوجيا الغربية بما يزيد على ٨٠٠ ألف اختراع مسجلة فى أهم مبنى فى طوكيو.. هيئة براءات الاختراع.. وهو ما حدث فى الولايات المتحدة نفسها التى كان عليها استيعاب التكنولوجيا الأوروبية أولا ثم التطوير والاختراع بعد ذلك.. بل.. إن هذا ما حدث فى مصر فى عهد محمد على الذى بنى الدولة الحديثة.. واستوعب الحياة الحديثة.. والتكنولوجيا الحديثة.. لكنه ضرب من الدول الكبرى عندما توغلت جيوشه بعيدا خارج الحدود فى محاولة جرئية منه لتكوين إمبراطورية كبرى.

وقد جاء اليابانيون إلى مصر فى ذلك الوقت ليدرسوا تجربة محمد على العلمية والإدارية.. تجربة التحديث التى كانت أشبه بمعجزة.. وكانت أقرب التجارب إليهم.. فهم أيضا كانوا يصنعون تجربة مشابهة تعرف بحركة ميجى الاصلاحية.. وميجى إمبراطور يابانى شهير لايزال اليابانيون يمجدونه ويتحدثون عنه حتى اليوم، وكأنه لايزال على قيد الحياة.. فهو الذى أخرجهم من ظلمات العصر الإقطاعى.. ووحدهم.. وأعاد إليهم تجانسهم.. وقد حكم ميجى وعمره ١٥ سنة.. وبدأ حكمه فى عام ١٨٦٨، وفى العام التالى نقل العاصمة إلى طوكيو.. وطوكيو معناها العاصمة الشرقية..

وكما فعل محمد على فعل ميجى تخلص محمد على من المماليك وتخلص ميجى من الساموراى.. الشبيه اليابانى للمماليك.. وجند محمد

على المصريين فى الجيش، وجعل ميجى التجنيد إجباريا ليحل محل نظام الخدمة العسكرية القديم القائم على أساس طبقى.. وعرفت اليابان لأول مرة فى سنة ١٨٧٦ نظام الوزارات المتخصصة.. ونظام المحاكم.. وشبكة التلغراف التى تربطها.. واستخدام الين لأول مرة، وكان يساوى فى ذلك الوقت حوالى نصف دولار.. وهو الآن أقل من السنت.

وأرسلت اليابان البعثات العلمية إلى الخارج واستقبلت الخبراء الأجانب.. نفس ما فعله محمد على.. لكن.. لا أحد انتبه إلى اليابان فهى فى أخر الدنيا وبعيدة عن مراكز القوة الاستعمارية فى أوروبا.. أما مصر فكانت فى القلب إنها عبقرية الموقع حسب وصف د. جمال حمدان.. لكنها كارثة، أيضا فكل من يريد العبور إلى الشرق كان لابد أن يمر عليها.. وكان من الأفضل السيطرة عليها.. احتلالها.. وهكذا لم تتوقف موجات الغزو الأجنبى.. ومحاولات السيطرة.. وهو مانجت منه اليابان.

ويصف أدوين رايشاور التجربة اليابانية فى ذلك الوقت بأنها تجربة غير عادية «فلم يحدث أن استجاب أى بلد آخر بسرعة ونجاح لتحدى تكنولوجيا الغرب المتفوقة فى المجالين الاقتصادى والعسكرى، كما فعلت اليابان».. والواقع «إن النجاح السريع النسبى الذى حققه اليابانيون لايرجع أساسا إلى العوامل الخارجية كتأثير الغرب عليها أو حجمها النسبى مثلا، لأن البلدان الأخرى ذات التجربة والحجم المشابه كانت استجابتها لتلك العوامل مختلفة تماما ومن ثم ينبغى أن نبحث عن أسباب نجاح اليابانيين فى خصائصهم الوطنية مثل تجانسهم الواضح وهويتهم الذاتية القوية، فضلا عن تميزهم الواضح بوعيهم الشديد بإمكانات التعلم من الخارج».

والأهم من هذه الخصائص أن تدمير اليابان فى الحرب العالمية الثانية تدميرا يكاد يكون شاملا قد جعلها تتحدى واقعها المر بعد الحرب لتصبح بلدا تحكمه الصناعة المتطورة والاقتصاد القوى والتجارة المسيطرة.. وكان التحدى الأكبر هو كيف يمكن أن تأخذ تكنولوجيا الغرب وتحتفظ بأخلاقها الشرقية، وهو تحد راح يتراجع بمرور الوقت لصالح الغرب.. تكنولوجيا وأخلاقيا.. فالتكنولوجيا غيرت كل شىء.. أسلوب الإدارة وأسلوب الحياة.. نوع الطعام ونوع العلاقة بين الرجل والمرأة.. ونوع العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

إن الوجه الآخر للحرية الاقتصادية هو الحرية السياسية.. والوجه الآخر لتطور الطباعة هو حرية التعبير.. والوجه الآخر لتكنولوجيا الأجهزة المنزلية هو خروج المرأة للعمل.. ومساواتها بالرجل.. ورفضها الخضوع له.. ورغبتها فى الاستقلال عنه.. إن التكنولوجيا ليست مجرد أدوات نستعملها، وإنما هى أسلوب حياة يجب الاعتراف به.. وبدون هذا الاعتراف تكرس التكنولوجيا القهر والتخلف ولاتكون أداة للتطور والتقدم.. تصبح أداة للقمع البوليسى من خلال التصنت على الناس، ومراقبتهم دون أن يشعروا، وتعذبهم دون أن يثبتوا ذلك... مثلا.

ويمكن القول أن اليابان رجحت الكفة الاقتصادية عن الكفة السياسية.. كما أنها نفذت تجربتها الرأسمالية من خلال سيطرة حكومية على التخطيط فالحكومة هى التى تحدد نوع النشاط الاقتصادى للقطاع الخاص ثم تتركه يمارسه بقوانين السوق.. وهو ما أعطى طبقة الموظفين أهمية خاصة تتجاوز

أهمية طبقة السياسيين الذين يوافقون غالبا على ما تريده الحكومة، كما هو الحال فى مصر.

ولكن الحكومة فى اليابان استغلت العزلة الطبيعية للبلاد، وحب الناس المجنون لبلادهم والخصائص النفسية والشخصية لهم فى بناء تجربة رأسمالية خاصة جدا. يمكن أن نصفها برأسمالية الستار الحديدى فهى رأسمالية محلية.. إقليمية.. داخلية لاتتصل بقوانين السوق العالمية وهو ما يفسر ارتفاع أسعار السلع اليابانية فى اليابان عنها فى خارج اليابان: فاليابان تنافس على الأسواق الخارجية وتغلق السوق المحلية على نفسها. وهنا يمكن أن يصيبك الذهول لو عرفت أن اليابانيين يشترون سلعهم الغالية ولايشترون السلع المنافسة لها والأرخص منها.

إن حبهم لبلادهم هو سلوك لا كلام.. قرار لاشعار.. ليست عندهم عقدة الخواجة.. ولاعقدة المستورد.. كما إنهم قادرون على تقليد الأشياء وتلافى عيوبها بحيث تكون أفضل من الأصل.

ولعل هذا التقليد هو الذى حرم اليابان من التقدير.. حتى عام ١٩٩٥ كان عدد الفائزين بجوائز نوبل فى العلوم والكيمياء والطب ٤٢٣ عالما كان ٤٠ ٪ منهم من الولايات المتحدة و١,٢ ٪ فقط من اليابان وعددهم ٥ علماء ٣ فى الطبيعة وواحد فى الكيمياء وواحد فى الطب.

وفى مجال الأدب فاز بجائزة نوبل أديبان هما ياسونرى كواباتا، وكنزبرو أوايه.. لكن الأكثر شهرة منهما هو الروائى العظيم ميشيما الذى ارتدى ثيابا عسكرية ودخل إلى مقر وزارة الدفاع وطالب بأن تتخلص اليابان من

الاحتلال الأمريكي وأن تسترد روح المقاتلين أو روح الساموراي.. ثم انتحر على طريقة سيبوكو بشق بطنه بالسيف.. إن هذا المشهد الدرامي المؤلم كان أقوى احتجاج سياسي من نوعه في اليابان.

وقد تساءل الناس كيف دخل ميشيما إلى مقر القيادة وكان سؤال أخر هو: هل تناسى اليابانيون أحاسيس الاحتكار والحذر التي اشتهروا بها؟

لقد زرت بعض قصور الحكام العسكريين القدامى الذين كان يُطلق عليهم «شوجون» ووجدت نظاما غريبا للأنذار المبكر ينبههم للغرباء.. فعندما تمشي على الحجرات الخشبية تنطلق أجراس (غير كهربائية بالطبع) بمجرد ضغط الأقدام على ألواح الخشب ومن قوة.

الأجراس تعرف قوة الغرباء وثقلهم وقوة السيوف التي يحملونها.. إنها روح الساموراي التي انتحر لاختفائها ميشيما.

إن هذه الروح هي التي جعلت اليابان تكتشف في القرن التاسع عشر أن القوة العسكرية لاتقل أهمية عن القوة الاقتصادية لتجد لنفسها مكانا تحت الشمس.. ودخلت اليابان في حربين انتصرت فيهما.. الأولى مع الصين في عام ١٨٩٤، والثانية مع روسيا في ١٩٠٤، وولدت الإمبراطورية اليابانية التي ضمت إليها تايوان، وكوريا وأجزاء أخرى من دول أخرى في جنوب شرقي آسيا، ومع اشتعال الحرب العالمية الأولى مدت اليابان سيطرتها الاقتصادية على أجزاء كبيرة من الصين وفكرت في احتلال سيبريا.. لكنها تراجعت عندما شعرت أن العالم على وشك أن يخاصمها ويقاطعها تجاريا.. وهي لاتقدر على هذا الخصام.. فهي تعيش على استيراد الخامات وتصدير

السلع والمنتجات.. والخصام التجارى يخنقها.. وهو ما حدث فيما بعد فى صيف ١٩٤١ خلال الحرب العالمية الثانية حين فرضت الولايات المتحدة حظراً على سفن شحن البترول اليابانية.. وكان أن وجدت الحكومة اليابانية نفسها مجبرة على اختيار من اثنين.. إما أن تستسلم للقرار الأمريكى، وإما أن تدخل حربا ضد الولايات المتحدة.. واختارت القرار الأخير.. فدمرت الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربو.. وكان انتصارا مدهشا.. لكن.. الحرب انتهت بإلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما ونجازاكي وبتدمير اليابان تدميرا ساحقاً.

لقد سمع اليابانيون صوت الإمبراطور لأول مرة فى الراديو وهو يعلن الهزيمة.. ويقبل الاستسلام.. «لقد رضينا بالمستحيل».. والمستحيل هو أن يهزموا.. فهم يعتقدون أن بلادهم مقدسة.. تحميها الآلهة.. وإمبراطورهم مقدس.. فهو أيضا من الآلهة.

ولم يستوعب اليابانيون ما قاله الإمبراطور فى أول الأمر، فهم لم يسمعوا صوته من قبل، ولم يتصوروا أنه يمكن أن يتكلم مثل البشر.. مثلهم.. وكانوا فى حاجة لبعض الوقت.. ولبعض الشرح ليستوعبوا حقائق جديدة كانت غائبة عنهم.. أهمها أنهم فقدوا مشاعر القدسية، وأن عليهم الاعتراف بالأمر الواقع الذى تجسد أمامهم فى صورة جنود أجانب يدخلون بلادهم ويحتلونها ويمضغون اللبان ثم يقذفونه فى وجوههم.

كان يجب أن يعلن الإمبراطور الهزيمة حتى يكف اليابانيون عن القتال ويلقوا بالسلاح.. فطاعتهم للإمبراطور كانت عمياء.. وللقائد والحاكم والكبير فى السن ورب العائلة.. ومدير الشركة أيضا.

واضطرت الحكومة لإرسال بعض المثقفين إلى اليابانيين فى الخارج لاقناعهم بالهزيمة... وقد اختبأ بعض الجنود اليابانيين سنوات طويلة وهم يحملون أسلحتهم فى غابات جزر المحيط الهادى وكان لابد من حملهم عنوة إلى اليابان ليروا الاحتلال الأمريكى لبلادهم .. بأنفسهم!

وأجبرت اليابان على توقيع معاهدة سلام مع أمريكا فى عام ١٩٥١، والأدق أن نقول معاهدة استسلام، فقد أصبح فى اليابان قواعد عسكرية أمريكية لعل أشهرها قاعدة تاشيكاوا وقاعدة ساناكاوى بالقرب من طوكيو.. وكانت هذه القواعد السبب فى اندلاع المظاهرات السياسية خاصة فى مواعيد تجديد المعاهدة.. كما أن الغضب اجتاح اليابان عندما أجرت الولايات المتحدة تجربة نووية فى جزيرة بكينى فى المحيط الهادى فى ١٩٥٤ أدت إلى قتل بحار فى قارب صيد يابانى اسمه «فوكورو مارو» وتتجدد المظاهرات فى ذكرى إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما.. وأثناء مرور حاملات الطائرات التى تعمل بالطاقة النووية.. ولم تسمح اليابان للجيش الأمريكى بتواجد غواصة نووية إلا فى سنة ١٩٦٤ .. أما التجربة اليابانية الخاصة بإنشاء وبناء سفينة تدار بالطاقة النووية فقد انتهت بالفشل تماما فى سنة ١٩٧٤ بعد أن رفض أى يابانى يعمل فى الميناء أن يقدم لها أى خدمة من أى نوع.

وحسب آخر الأرقام فى سنة ١٩٩٦ فى اليابان ٢٢ ألف جندى أمريكى، و١٥٠ طائرة حربية.. أما قوات الدفاع الذاتى اليابانية ففيها، ١٥٣ ألف جندى مشاة، و٣٤٦ ألفاً فى البحرية، ولديها ٥٢٠ طائرة مقاتلة.. والجملة ٤٩٩ ألف جندى وهو رقم أكبر مما تحدد فى عام ١٩٥٤ وهو ٢٥٠ ألف فرد.

لكن اليابان ترى أن الرقم متواضع إذا ما قورن بقوة الصين ٢ مليون و٢٠٠ ألف في المشاة ومليون و٥٠ ألفا في البحرية بخلاف ٦٠١٠ طائرات حربية.. وإذا ما قورن بكوريا الشمالية مليون مشاة، و١٠٧ آلاف في البحرية، و٥٩٠ طائرة.. وإذا ما قورن بكوريا الجنوبية: ٥٠٠ ألف جندى مشاة و١٤١ ألفا في البحرية، و٢٧ ألفاً في مشاة البحرية بخلاف ٢٧ ألف جندى أمريكى!

وزادت ميزانية الدفاع في اليابان كانت حوالى ١٥٧٩٠٠ مليون ين (١٠ ٪ من الميزانية) فى سنة ١٩٦٠ قفزت إلى ٤٨٤٥٥٠٠ مليون ين (٦,٥ ٪ من الميزانية) فى سنة ١٩٩٦،

لكن.. زيادة ميزانية الدفاع لاتعنى زيادة الرغبة فى الحرب.. لقد احترقوا بكل أنواع الحرب.. وكانوا وحدهم الذين ذاقوا مرارة القنبلة الذرية.. ومن ثم فعندما يتكلمون عن السلام يجب أن نصدقهم.. بل إن مفهومهم للسلام يكاد يكون الحد الأقصى الذى وصل إليه بشر منذ الشر الذى فجره قابيل بقتل شقيقه هابيل.

إنه سلام.. بجد.. وليس على طريقة يا سلام المشهورة فى الشرق الأوسط.. هم فى سلام.. ونحن يا سلام ■

٥

زواج المتعة بين العلماء و الجنرالات!

كان لابد أن أرى هيروشيما.

جريمة النار النووية التى اختصرت زمن شواء اللحم الإنسانى إلى لحظات خاطفة أسرع من البرق... جريمة الحرب الأمريكية التى لم تتقيد بأخلاق القتل وأصول الموت وتجاوزت الإشارات الضوئية البشرية الخضراء والصفراء والحمراء... جريمة الغطرسة العسكرية المدعومة بالعلم والعلماء، والتى أصابت الدنيا بانحناء مزمن فى عمودها الفقرى وفرضت عليها السجود.

إن هيروشيما هى ضريبة زواج المتعة بين العلماء والجنرالات على فراش سلطة استعمارية أمريكية جديدة... بدأت بأحلام الكوكاكولا والفوز باليانصيب وانتهت بأن جعلت حياة الناس جحيما فى النهار... وكوابيس فى الليل... جعلتهم يتسولون، ويجوعون، ويلبسون الثياب المرقعة، ويبحثون عن صحن حساء، ويديرون الخد الأيسر لمن يضربهم على الخد الأيمن... فتحول حكام العالم من يومها إلى مجموعة من الملاكمين.

تقع هيروشيما على بعد ٨٠٠ كيلو متر من طوكيو... ويمكن السفر إليها بالطائرة .. لكننى فضلت السفر بالقطار.. متعة أن ترى بلادا لا تعرفها من نافذة القطار.. ثم إن القطار هو القطار الرصاصة.. أى الذى ينطلق كالرصاصة بسرعة تصل إلى ٢٨٠ كيلو مترا فى الساعة.. ولو حسبت الطريق إلى المطار، وهو لايقل عن ساعة من طوكيو.. وإجراءات السفر بالطائرة، وهى تحتاج لأكثر من ساعة، ومدة الطيران وهى تزيد على الساعة، والطريق من مطار هيروشيما لوسط المدينة، هو يستغرق أكثر من نصف ساعة.. لوجدت أن القطار أسرع وأفضل من الطائرة.

وبالقرب من هيروشيما يقع أجمل مكان فى اليابان.. نوجيما وهى جزيرة مشهورة بمعبدها الغارق فى بحر إنلاند.. وهى سبب آخر للسفر إلى هيروشيما.. فهى واحدة من أشهر ثلاث مناطق طبيعية.. أما المنطقة الثانية فهى آمافوها شيدات أوجسر السماء، وهى مساحة رملية صغيرة تظللها أشجار الصنوبر على ساحل بحر اليابان شمال كيوتو.. يمكن زيارتها فى طريق العودة.. والمنطقة الثالثة هى ماتسوشيما، وهى مجموعة من الجزر ذات

مناظر خلابة ومليئة بأشجار الصنوبر وتقع فى خليج بالقرب من مدينة سنيداى الواقعة فى الجزء الشمالى من اليابان.

فى المحطة تستطيع الحصول على كافة معلومات السفر بالكومبيوتر.. مجانا.. وعليك أن تحمل حقائبك بنفسك فهم لا يعرفون مهنة الشيال.. كما أن عليك أن تشترى القهوة بنفسك، وأن تعيد الفنجان إلى مكان محدد.. فهم لا يعرفون فى كثير من المقاهى مهنة الجرسون.. ولست فى حاجة إلى القلق فالمواعيد فى منتهى الدقة.. بالثانية.. وهناك قطار كل ٥ دقائق.. وبعض القطارات بدورين.. القطارات التى تصل بين العاصمة والضواحى الشمالية، حيث يسكن معظم العاملين فى طوكيو.

القطار الذى ركبته (نوزومى ـ ٩) يسع ١٦٠٠ راكب ويتم التحكم فيه إلكترونيا ودور السائق الوحيد هو أن يتأكد من أن القطار وقف فى مكانه المحدد على الرصيف وفى الأماكن المحددة لوقوف عربات المدخنين على الرصيف يسمح فقط بالتدخين.. وقد توقف القطار فى نوجويا، وكيوتو، وأوزاكا.. وفى هيروشيما كان الفندق على بعد أمتار من المحطة.

لم أشعر بالتعب.. فالرحلة لم تزد على ثلاث ساعات على أن المسافة كانت أبعد من المسافة بين القاهرة والأقصر.. وذهبت على الفور إلى موقع الجريمة الكبرى التى انفجرت فى الساعة الثامنة والربع صباح يوم الاثنين السادس من أغسطس عام ١٩٤٥، حين ألقيت القنبلة الذرية الأمريكية من على ارتفاع ٥٨٠ مترا فوق مركز المدينة وأنهت الحرب العالمية الثانية بقسوة وبشاعة!

لقد بدأت تجارب القنبلة الذرية الأمريكية تصبح حقيقة ملموسة فى سنة ١٩٤٢ تحت اسم كودى (سرى) هو «خطة مانهاتن».. وفى سبتمبر ١٩٤٤ تقرر استخدام القنبلة ضد اليابان لكن سبق ذلك تجريبها فى ١٦ يوليو ١٩٤٥ فى صحراء الأموجوردو فى نيومكسيكو.. ونجحت التجربة.. فى ٢٥ يوليو صدر الأمر العسكرى بإلقاء القنبلة الذرية على اليابان.. واختير يوم ٦ أغسطس لتنفيذ الأمر على هيروشيما.. إن هذا الأمر وثيقة محفوظة فى متحف هيروشيما وتستحق أن نقرأها:

القسم الحربى

مكتب رئيس أركان الحرب

واشنطن دى. سى. فى ٢٥ يوليو ١٩٤٥

إلى الجنرال كارل سباتز ـ القائد العام.

القوات الجوية العسكرية الاستراتيجية للولايات المتحدة:

١ـ الفصيلة المركبة ٥٠٩ ـ القوة الجوية العشرون ستلقى قنبلتها الذرية الخاصة بمجرد أن تسمح الأحوال الجوية برؤية الانفجار بعد حوالى الثالث من أغسطس ١٩٤٥ على واحد من الأهداف الآتية: هيروشيما، كوكورا، تيجاتا، ناجازاكى.. طائرات إضافية سوف تصاحب الطائرة التى تحمل القنبلة كى تحمل الطاقم العسكرى والعلماء المدنيين من القسم العسكرى لمشاهدة وتسجيل التأثيرات الناتجة عن انفجار القنبلة، وستبقى هذه الطائرات على بعد أميال من نقطة اصطدام القنبلة بالأرض.

٢ـ سوف تلقى قنابل إضافية على الأهداف السابقة بمجرد أن تصبح معدة من الفريق المختص. وسيتم إصدار تعليمات أخرى فيما يختص بأهداف أخرى غير التى ذكرت سابقا.

٣ـ المنشورات الخاصة بأى أو كل المعلومات المتعلقة باستخدام السلاح (الذرى) ضد اليابان تم حفظها لدى السكرتارية الحربية ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية. أما نشر الأخبار المتعلقة بالموضوع وبث المعلومات فسيتم إصدارهما بواسطة القادة فى هذا المجال دون إذن مسبق وأى رواية أو روايات إخبارية سوف ترسل إلى القسم الحربى للتأكد منها.

٤ـ البيانات السابقة تم إصدارها لك مباشرة وبموافقة السكرتارية الحربية ورئيس أركان حرب الولايات المتحدة الأمريكية. إنه لمن المستحب أن تسلم نسخة شخصية من هذه البيانات للجنرال ماك آرثر ونسخة أخرى للأدميرال نيميتز لإعلامهما.

التوقيع:

ثورت. ت. هاندى.

جنرال ج. س. س.

القائد العام للأركان.

انتهت الوثيقة.

اخترقت سيارة التاكسى شوارع المدينة المزدحمة .. إنها شوارع حديثة تتلئ بالفاترينات التى تعرض آخر صيحات بيوت الأزياء الشهيرة من يس.. قطعا تغيرت هيروشيما. إنها تقع على دلتا نهر يسمى أوتا.. وكانت

واحدة من القواعد العسكرية اليابانية القليلة فى غرب البلاد.. وكانت نقطة تجمع الجيوش خلال حروب اليابان الاستعمارية فى أعالى البحار.

بعد ١٠ دقائق بالتاكسى من محطة القطار والفندق كنا فى المكان الذى ألقيت عليه القنبلة التى كانت قوتها التدميرية مساوية لانفجار ١٥ ـ ٢٠ ألف طن من مادة تى.إن. تى.. وقد سميت القنبلة باسم «الولد الصغير»، وكان اسمها فى بداية التصنيع «الرجل النحيل».. إن البنتاجون أو المؤسسة العسكرية الأمريكية يستلهم أسماء المصائب التى يقوم بها من هوليوود.. عالم السينما الخيالى.. فالحرب فى الخليج يطلق عليها «عاصفة الصحراء».. والمناورات المشتركة مع مصر اسمها «النجم الساطع».. وغزو الصومال يدعوه «عودة الأمل».

المكان الذى ألقيت عليه القنبلة أصبح الآن موقف سيارات متعدد الطوابق، وكان وقتها مستشفى يسمى شيما.. أمامه جسر على حرف T على بعد ٣٠٠ متر.. وبالقرب من الجسر بقايا مبنى له قبة كان مخصصا لتشجيع الصناعات صممه وبناه فى عام ١٩١٥ فنان ومهندس معمارى تشيكى هو جان ليتزل.. ويعريف هذا المكان الآن بقبة السلام فى هيروشيما.. وأغلب الظن أن هذا المبنى كان مركز إلقاء القنبلة لكن الطائرة انحرفت قليلا فسقطت فوق المستشفى .. والطائرة من طراز ٢٩ ب رقمها ٧٣٥٤ واسمها أنولا جاى انطلقت من قاعدة عسكرية أمريكية فى جزيرة يتفيان بالمحيط الهادى، واستغرقت ست ساعات ونصف الساعة حتى أصبحت فوق هيروشيما.. وكانت مصحوبة بطائرة لإسقاط معدات لقياس القوة التدميرية للقنبلة وطائرة أخرى لتصوير الحدث.

كان الصباح في يوم ٦ أغسطس مشرقا، صافيا، خاليا من السحب والغيوم.. وكانت الشمس صحوة.. ساطعة.. ساخنة.. وقد أطلقت صفارات الإنذار ٣ مرات ولم تحدث غارات، فكان أن واصل الناس عملهم فى المصانع التى كانت فى خدمة المجهود الحربى.. وكان عدد سكان المدينة فى ذلك اليوم ٣٥٠ ألف شخص منهم ٤٠ ألف جندى.. ولم يكن الطلبة فى الدراسة.. كانوا فى إجازة الصيف.. لكن الحرب حولت الإجازة إلى عمل شاق أكثر من الدراسة .. المساعدة فى رفع الأنقاض عن المبانى المهدمة.

طالب فى الصف الأول من المدرسة المتوسطة فى هيروشيما اسمه شيجيرو شهد ما جرى وسجله فى أوراق نادرة محفوظة فى المتحف:

«لن أنسى أبدا ذلك اليوم بعد أن انتهينا من أداء تحية الصباح فى فناء المدرسة انتظرنا فى فصولنا لنبدأ عملنا فى إزالة الأنقاض. وفجأة صاح زميل من النافذة: ب ٢٩!.

«وفى نفس اللحظة اخترق عينى بريق لامع وتهدم المبنى بأكمله واحتجزنا تحت الأنقاض. لست أدرى كم من الوقت بقيت فاقدا الوعى. وعندما أفقت لم أستطع تحريك جسمى. جراح فى وجهى ويداى كانتا تنبضان بالألم. انكسرت سنتى الأمامية وقميصى كان غارقا فى الدماء. وأثناء زحفى مشجعا نفسى نجحت إلى حد ما فى انتزاع رأسى من تحت الأنقاض. المدرسة التى كانت من المفترض أن تظهر لعينى لم يعد بالإمكان رؤيتها. كانت قد اختفت وحلت محلها أنقاض محترقة بجوار المدرسة باتجاه مركز

المدينة كل ما كان بإمكانى مشاهدته هو بحر من النيران، كنت مذعورا بدرجة كبيرة ولم أستطيع التوقف عن الارتعاش وبتحريك جسمى قليلا وقتها أصبح بإمكانى الحركة بحرية بعيدا عن الأجزاء المحطمة واضعا في اعتبارى التأكد من الهرب بسرعة فرارا من النيران واتخذت طريقى بخطوات عشوائية خلال أنقاض المدرسة وفررت».

لكن.. هذا الوصف يظل ساذجا، برئيا لا يعكس ما حدث، ولا يقترب منه.. لقد وصلت درجة الحرارة خلال ثلاث ثوان إلى ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ درجة مئوية.. الحديد ينصهر عند درجة ١٥٣٦ مئوية.. وبدائرة قطرها ٦٠٠ متر احترقت الأشجار والحجارة وأسقف المنازل الفخارية.. وبدائرة قطرها ٢ كيلو متر احترقت الملابس والأسطح الخشبية.

وتسبب قوة الانفجار فى تهدم الكوبرى والمبانى الخشبية والحجرية لمسافة تزيد على ٢,٣ كيلو متر.. وفى هذه المسافة تكفلت النيران ذات الحرارة العالية بكل ما تبقى على سطح الأرض.. أما الإشعاع فقد أدى إلى فقدان البشر للوعى.. وإلى تدمير النخاع العظمى .. والإصابة بسرطان الدم.. وولادة أطفال مشوهين.. وكان عدد الضحايا حوالى ١٤٠ ألف شخص.

إن قنبلة هيروشيما كانت من اليورانيوم، أما قنبلة ناجازاكى، فكانت من البلوتونيوم، وقد سميت بالرجل البدين، وألقيت فى يوم ٩ أغسطس.. وبعدها قبلت اليابان بتصريح بوتسدام الذى صدر عن الحلفاء فى ٢٦ يوليو ١٩٤٥، وطالب اليابان بالتسليم غير المشروط.. وكانت اليابان قد رفضته

فى ٢٨ يوليو.. أى بعد ٤٨ ساعة.. لكنها عادت وقبلته بعد قنبلة ناجازاكى.. فى ١٥ أغسطس.

بعد عبور الجسر ستجد حديقة.. إنها حديقة السلام التذكارية.. لقد بنيت بالقانون الخاص الذى صدر لإعادة بناء المدينة.. ونص على أنّ إعادة بناء هيروشيما هو تجسيد لكفاح الجنس البشرى من أجل السلام.. ونص على المحافظة على جزيرة نياجيما القريبة من مركز الانفجار.

فى الحديقة جرس كبير يسمى جرس السلام اشترته ووضعته فى هذا المكان جمعية تسمى «جمعية المصلين من أجل السلام».. وهناك نافورة الصلاة علٰى أرواح الضحايا.. والنصب التذكارى للضحايا الذى عليه الأسماء كلها.. ومقبرة جماعية.. وشعلة السلام التى ستظل مشتعلة إلى أن يتطهر العالم من القنابل والتجارب النووية.. والعبارة الشهيرة هنا «دعوا جميع الأرواح الموجودة هنا ترقد فى سلام فلن نكرر هذا الجرم أبدا».. ويردد الزائرون والمصلون هذه العبارة الأقرب للقسم.

وفى الحديقة نصب تذكارى للأطفال أمامه ملايين من الأوراق الملونة على شكل طائر يابانى شهير هو تورو له منقار يسمى كرين والطائر أشبه بطائر الفلامنكو.. وهو يرمز إلى السعادة والخلود.. كما أنه بعد أن يموت ويدفن فى التراب يمكن أن يقوم وتبعث فيه الحياة من جديد.. ويعتقد اليابانيون أنهم لوصنعوا طيورا من الورق على شكل هذا الطائر فإن المريض يشفى والغائب يعود والأمنيات تتحقق.

وهذا ما فعلته فتاة هيروشيما الصغيرة ساواكو ساساكى.. لكن أمنيتها لم تتحقق.. إنها أكبر من العاشرة بقليل أصيبت بسبب الإشعاع باللوكيميا..

سرطان الدم.. وفى المستشفى راحت تصنع عشرات المئات للطائر من أوراق تغليف الدواء.. ورغم أنها لم تمت على الفور إلا أنها لم تعش طويلا.. فصنعوا لها تمثالا وضعوه على نصب تذكارى ونسبوه إلى الأطفال .. ويقوم تلاميذ المدارس بصنع طيور الورق الملونة بالملايين ووضعها تحت تمثال ساواكو.. وإلى جانب الطيور الملونة لوحات الصغار التى تصور بشاعة الحرب وحلم السلام.

وفى متحف هيروشيما مئات من رسائل الاحتجاج من عمدة المدينة إلى حكام العالم الذين يلعبون بالقنابل النووية.. يطالبهم بالحكمة والعقل واستيعاب الدرس الذى دفعت هيروشيما ثمنه غاليا نيابة عن البشرية كلها.

وفى المتحف صور وأفلام وبقايا ملابس وعلب طعام محترقة ولوح زجاج عليه قطران من المطر الأسود الذى يسقط محملا بالإشعاع بعد التفجير النووى .

وهناك دراجة محترقة لطفل كان عمره ٣ سنوات اسمه شينى ونشى قتل فى الانفجار فأصر أبوه على دفنه فى البيت لمدة ٤٠ سنة ثم دفنه فى المقابر وقدم الدراجة للمتحف.

وهناك صورة لترس ضخم مطبوعة على الحائط بعد أن تعرض الترس للحرارة والإشعاع.. وهناك قصيدة للشاعر اليابانى تاميكى هيرا الذى مات بالإشعاع وترك شعره فى المتحف ليقرأه الناس.. وهو يقول:

هذا هو الإنسان

تغير كثيرا بسبب القنبلة الذرية

جسمه انتفخ كالبالون

لافرق بين رجل وامرأة

الكل سواء..

الصوت يأتى ضعيفا

من الفم المغلق بالحرائق أنقذونى

لكن لا أحد يسمع.

وأحسست بالحزن يعتصر قلبى..

وطلبوا منى أن أكتب كلمة فى سجل الزوار.. ونددت بالجريمة.. وبالذين ارتكبوها.. وتذكرت أننا فى شهر يونيو.. شهر سقوط الرئيس نيكسون فى ووترجيت .. إن الأمريكيين يتذكرونها ويحتفلون بها.. لكنهم لا يتذكرون الفضائح ويغطون على الجرائم.

لكن.. الحياة تستمر.

شربت فنجان قهوة.. وتفرجت على متحف للفن الحديث.. وفى الليل تناولت العشاء فى مطعم بفندق «جراتفيا» وهو مطعم كبير، أشبه بالحانات الأمريكية.. صاخب.. أسعاره مقبولة.. معظم زبائنه من الشباب.. بعضهم يجلس على الأرض على الطريقة اليابانية.. والبعض الآخر يجلس على الموائد وعلى البار.. على الطريقة الغربية.. إنه مكان يعكس التناقض أو التمزق الحضارى.. وربما التوافق والتداخل الحضارى كما يتصور اليابانيون.. والموسيقى جاز وبوب وإن كانت كلمات الأغانى يابانية.. والدخان يملأ

المكان.. فاليابان جنة المدخنين.. فهم لا يعاملونهم بازدراء كما يحدث فى معظم دول الشمال.. ولهذا المطعم ٣٠٠ فرع ويشتهر بتقديم ٤٠٠ طبق من أطباق الطعام الصغيرة.. المزات.. لقد سبقت اليابان لبنان فى ابتكار هذه الأطباق .. وحاولت أن أجرب أشهرها، فأكلت ثعبان البحر، وجراد البحر، وجواد البحر، ولم أستمتع إلا بكفتة الدجاج المعجونة بمسحوق فول الصويا.

واستمتعت أكثر بتأمل الأجيال الجديدة التى لم تشهد مأساة هيروشيما ولم تعش أيام تحطيم الرؤوس والنفوس.. هل هذه الأجيال أسعد حظا؟ أم أن لكل جيل متاعبه وأحزانه ومعاناته؟

لاحظت أن نسبة كبيرة من الفتيات تجلس بمفردها أو مع أخرى من جنسها.. بنات وبنات.. إنها ملاحظة عامة فى معظم الأماكن العامة.. ولا أحد يلتفت لأحد.. لا معاكسة ولا نظرة فابتسامة .. الكل محافظ .. والكل حر . ولا أحد يتدخل فى حرية الآخر.. كل شخص مشغول بنفسه .. متى ننشغل بأنفسنا أكثر من انشغالنا بالآخرين؟

إن التماسك النفسى وصعوبة التعبير عن المشاعر واحترام خصوصية الآخرين، صفات فى الإنسان اليابانى يتربى عليها بقسوة أحيانا.. ويكتسبها بالتدريب والتعليم غالبا.. فالأم يمكن أن تعنف طفلها لو بكى من الجوع والألم.. وتقول له: يا للعار.. أتبكى من هذا الألم البسيط؟ .. ماذا ستفعل لو قطعت ذراعك فى حادث؟ .. أو اضطررت للبقاء جائعا لمدة يوم أو أكثر.. أو أجبرت على الانتحار؟

وفى القرن الماضى كان الساموراى يتركون أبناءهم فى الوديان الموحشة ويعرضونهم للمخاطر والمهالك.. يحرمونهم من الطعام لفترة معينة.. ويتركونهم فى البرد القارس لمدة أطول.

وكان الأهل يأمرون أطفالهم بالذهاب فى جماعات إلى الأماكن المخيفة مثل ساحات الإعدام والمقابر والبيوت المهجورة التى كانوا يعتقدون أن العفاريت والأشباح تسكنها، وكان الشباب فى الماضى مغرما بمثل هذه العادات.. وبعد أن أصبح تنفيذ حكم الإعدام يتم علنا لم يكن الآباء يكتفون بإرسال أبنائهم لمشاهدة المشهد المخيف، بل كانوا يحتّمون عليهم أن يذهبوا وحدهم ليلا إلى ساحة الإعدام ويتركوا على رأس جثة القتيل التى لم ترفع من مكانها بعد علامة تؤكد ذهابهم.

وكان الأطفال الأصغر الذين لا يطيقون هذا الاختبار ينهضون من نومهم قبل بزوغ الشمس ليقوموا ـ قبل تناول الإفطار ـ بتدريبات القراءة اليومية، ثم يتوجهون بأقدام حافية فى برد الشتاء إلى دور معلميهم.. وكثيرا ما كان هؤلاء الأطفال يجتمعون مرة أو مرتين كل شهر فى جماعات صغيرة حيث يقضون الليل كله دون نوم فى ترتيل بعض النصوص بالتناوب بصوت عال، كنوع من التدريب على القراءة وعلى التحمل معا.

ومصادر هذه المعلومات التى تسبب الدهشة كتاب ألفه كاتب يابانى هو اينازو نيتوبى بعنوان «البوشيدو».. أو أخلاق الفروسية فى الشخصية اليابانية.. أو المكونات التقليدية للثقافة اليابانية.. وستندهش أكثر لو عرفت أن الذى ترجمه هو الدكتور نصر حامد أبو زيد.. نموذج للبوشيدو المصرى المهدد بالانقراض.

إن هذا الفلاح المصرى المكافح الذى جعل عقله فى حجم السماء ولم يخلع جذوره من الأرض، طارده أنصار الظلام. وجرموا حقه فى التفكير رموه بالتكفير.. وفرقوه عن زوجته الدكتورة ابتهال يونس.. ونفوه خارج الوطن لكنهم لم ينجحوا فى نفيه خارج نفسه.

وقد عاش د. نصر أبو زيد بعض الوقت فى جامعة طوكيو واستوعب ضرورة تنمية العناصر الثقافية والحضارية والإنسانية والنفسية فى التنمية الاقتصادية.. وهى فكرة لا تزال غائبة.. فلا نزال نتصور التنمية استثمارات وعقارات .. مع أن دولا كثيرة امتلكت كنوز الدنيا وظلت فى مكانها. بل ربما تخلفت وتراجعت أكثر.. وهناك دول أخرى لا تملك أى شئ وأصبحت ـ بفعل تنمية الموارد البشرية ـ فى القمة.. اليابان وكوريا وسنغافورة مثلا.

وعبر د. نصر أبو زيد عن الفكرة الغائبة فى كتابه الهام المجهول «البوشيدو» الذى صدر فى سنة ١٩٩٣ ولم أسمع عنه ولم أقرأه إلا بالصدفة وبعد رحلتى إلى اليابان.

وفى الكتاب.. وفى الواقع يحافظ اليابانيون فى فضيلة ضبط النفس.. وما يرتبط بها من قدرة هائلة على التحمل دون شكوى.. وعدم إفساد متعة الآخرين وبهجتهم وصفاء نفوسهم.

«لقد كان إظهار العواطف على ملامح الوجه من علامات انعدام الرجولة» .. وتوصف الشخصية القوية بأنها التى لا يبدو على وجه صاحبها بوادر الفرح أو الغضب.. و «كانت أكثر العواطف طبيعية يتم التحكم فيها

والسيطرة عليها.. لقد كانت رغبة الأب فى احتضان ابنه ثمنها كرامة الأب واحترام الآخرين له».

ولم يكن الرجل يقبل زوجته فى حضور الآخرين مهما كانت المناسبة.. إن الزوج فى أمريكا يقبل زوجته فى العلن ويضربها فى السر، فى حين أن اليابانى يضرب زوجته علنا ويقبلها سرا.

وفى الوداع كما فى الاستقبال يلتقى اليابانيون بالانحناء.. لا أحضان.. ولا قبلات.. ولا دموع حارة.. ولا مناديل يلوحون بها.. ويمكن أن تجد أباً يجلس وراء باب ابنه المريض يحصى أنفاسه وذلك «حتى لا يضبطه أحد متلبسا بضعفه الأبوى».

إن عبارة هوهنزوليرن: «تعلم كيف تخفى مشاعرك وعواطفك» هى عبارة لن تصدقها إلا فى اليابان.

ولكنهم مثلنا عندما يضحكون أحيانا.. إن الضحك فى هذه الحالة ملاذ من الضعف البشرى، يستر أشياء أخرى، ويعيد التوازن حين يضطرب المزاج لأسباب خارجية.. أو هو «محاولة لاستعادة التوازن بين الأسف والغضب».

ولو لم يفلح الضحك لجأوا إلى الشعر والحكم والأمثال.. وهم فى ذلك مثلنا أيضا حينما نقول فى الأحزان.. «كل من عليها فان».. أو أن الدنيا ليست على حال دائم.

إن ضبط النفس وإخفاء المشاعر وصعوبة إعلان العواطف هى السر فى عدم المعاكسات فى الشوارع وفى الأماكن العامة.. فمنتهى الإهانة أن

تبتسم لفتاة ولا تبتسم لك.. أو تدعوها للرقص وترفض.. أو تقول لها: أحبك.. وتقول لك: عيب.. هنا صدقني الانتحار ضرورة لا مفر منها.

ولذلك يمكن أن تجد فتيات يتكلمن فى التليفون المحمول وهن بمفردهن ليلا فى الشوارع، يرتكن بظهورهن على جدران البيوت والمحلات، دون أن يتعرضن لأذى.. وهذا المشهد برىء لا يوحى بشىء.. ولا يدعو إلى شىء.. لأن الشىء الذى تتصوره موجود فى الشوارع الخلفية وبوضوح.. وحسب ما فى جيبك من نقود.

أو يمكن أن تدخل من الباب الخلفى للدعارة.. المساج، أو التدليك الذى ينقلب إلى تدليل. أو الأصابع المدربة على الاسترخاء التى تنقلب إلى أصابع مدربة على الاستنفار.. حسب الطلب.. وحسب السعر.. إن المساج المساج لن يكلفك أكثر من ٢٥ دولار.. أما المساج غير المساج فاضرب فى عشرة على الأقل.. وهو لا يوجد إلا فى أماكن معينة يحتاج العثور عليها إلى خبرة خاصة.. فالدعارة ممنوعة.. كانت مباحة وعلنية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.. وقبل تحريمها وتجريمها كانت الدعارة فى أحياء خلفية ضيقة .. وكانت بيوت الدعارة عبارة عن فاترينات بمستوى الأرض تجلس فيها العاهرات بملابسهن التقليدية وبماكياج كثيف أقرب إلى القناع لإخفاء شخصياتهن، وخلف الفاترينة فراش من الحصير تخفيه ستارة من القماش المطبوع.

وفى مدينة السينما بكيوتو رأيت نموذجا لأحياء الدعارة.. ومدينة السينما مفتوحة للجمهور على طريقة يونيفرسال ستديو فى هوليوود.. حيث

ديكورات مجسمة لمعالم الحياة القديمة والحديثة فى اليابان.. محكمة .. سجن..بار.. وسائل التعذيب.. قسم بوليس.. مثلا..

والصينيون هم الذين اخترعوا المساج، وتركوا الجسم يعبر عن نفسه بصراحة وجرأة.. لكن التايلانديين استغلوه استغلالا جنسيا.. وابتكروا المساج بصدر المرأة بشرط أن يكون الصدر فى حجم البطيخة.. وابتكروا المساج بالشفاه الغليظة.. أو مساج الشفط بالشفاه.. واستوردت عصابات الرقيق الأبيض الفكرة من بانكوك ونشروها فى عواصم الدنيا بما فيها القاهرة.

وأول دروس ضبط التفس ليس المساج على هذا النحو وإنما الحمام على النحو اليابانى.. هو وسيلة للعقاب.. ربما.. وسيلة لاختبار القدرة على تحمل الصدمات .. قطعا.

ستدخل فى برميل من الماء الأقرب لدرجة الغليان.. وعندما ستخرج منه ستفاجأ بماء باردٍ كأنه من الفريزر.. ومهما حاولت الهروب فلن تفلح فالباب مغلق ولن يفتح إلا بعد مدة محددة.. وهم يفضلون الماء المثلج فقط فى عز الشتاء.. إنها وسيلة يومية لتربية النفس البشرية.

كيف تحتمل ولا تعبر عن الألم؟..

كيف تواجه المفاجآت دون أن يقف قلبك؟.. كيف تحتمل الصعاب دون أن تنهار؟.. ثم والأهم.. كيف ترى امرأة جميلة، مثيرة، وتسقط فى هواها ولا تبوح لها بذلك.. أو تتعامل معها بجمود وبرودة ولا برودة الماء فى الشتاء؟.

ثم .. إنهم يرون أن التعبير عن المشاعر العميقة بكلمات عادية.. سريعة.. خاطفة هو دليل على أن المشاعر ليست عميقة.. وسطحية.. أو ليست صادقة.. وبما هى نزوات عابرة.

والمثل اليابانى يقول: إن ثمرة الرمان هى فقط التى تريك ما فى قلبها حين تفتح فمها؟

وهم ليسوا مثل ثمرة الرمان أو ثمرة المانجو وإنما هم مثل العروسة الخشبية الروسية، كلما فتحتها وجدت أخرى فى داخلها.. إنها تعبر عن الفن الذى يجيده اليابانيون.. «فن إخفاء الأفكار».. لذلك هم فى حاجة لأن يثقوا فيك قبل أن يفتحوا قلوبهم لك.. ولا يمكن أن تحظى بالثقة لو كذبت.. أو وعدت بشىء ولم تنفذه.. أو انفعلت عاطفيا ثم أصبت بالهبوط المفاجىء فى المشاعر.

ما رأيك فى أن تأخذ حماما باردا قبل أن تقول للمرأة أو الفتاة التى تعجب بها: أحبك.

جرب أنت الحمام البارد.. واترك لها الحمام الساخن.. وانتظر الفوز فى اللعبة الأزلية بين الرجل والمرأة.. لعبة القط والفأر.. لعبة الساخن والبارد.. والنحلة والزهرة .. البارود وعود الكبريت ■



دقوا الأجراس حتى تستيقظ الآلهة!

أحيانا.. تتطابق مقاييس المدن مع مقاييس البشر.

وقد أدهشنى أن سياسيا مرموقا، موهوبا قال لى ذات مرة بعد أن قرأ مقالا لى، ووصل الدم فى عروقه إلى درجة الغليان: أنت لا تكتب.. أنت تفجر نفسك.. أنت لست كاتبا تقليديا.. أنت هيروشيما.

وأعترف أن التشبيه أفزعنى.. فمقاييسى ليست مقاييس هذه المدينة المجروحة، المحروقة بالصبر والعذاب.. والوجه

الآخر للنار في قلمي، ندى طيب في قلبي.

لكن.. بعد أن رأيت هيروشيما ووجهها الآخر فوجيما أستطيع أن أقبل التشبيه.. فهما معا الحرقة والروعة.. العاصفة والعاطف.. القسوة والقصيدة..

إن فوجيما أجمل مكان في اليابان.. وهي جزيرة قريب من أحضان هيروشيما.. وفيها معبد شهير في الماء يضعه الإمبراطور تحت رعايته وتضعه منظمة اليونسكو تحت رعايتها.

في الصباح الباكر انطلق بنا سائق السيارة الليموزين السوداء ليخرج بنا من المدينة.. كان السائق أنيقا، يحرص على ارتداء «الجونتي» الأبيض.. وكان يتحدث الإنجليزية بسهولة وطلاقة.. وقد حرص على أن يكون مرشدا سياحيا أيضا!.

عبرنا جسرا على بحر انلاند.. فأشار السائق إلى شباك من الحديد قائمة في المياه.. إنها مزارع المحار الذى يصبح طبقا شهيا بعد سنتين من تربيته.. كنا في طريقنا إلى مرسى العبارات التى تحمل الناس والسيارات إلى الجزيرة عندما راح السائق يحدثنا عن مستر مازدا، صاحب شركة السيارات المعروفة بهذا الاسم، الذى أنفق نقود شركته على تطوير محرك جديد لم يلق إقبالا، فوجد نفسه في ضائقة مالية، فرضت عليه إدماج شركته في شركة فورد الأمريكية لتصبح هي صاحبة القرار الأول والأخير.. أما السيد مازدا فقد اكتفى برئاسة فريق البيسبول في هيروشيما..

والبيسبول لعبة أمريكية.. لكن من شدة حماس اليابانيين لها تبدو وكأنها رياضة يابانية.. وطنية.. مع أن الرياضة الوطنية هى الجودو.

إن اليابانيين يعتبرون الجودو والكتابة بالريشة جزءاً من ثقافتهم المتميزة.. والكتابة بالريشة فن من الفنون المحببة فى المدارس.. مثل فن كتابة الخط العربى زمان فى مدارسنا.. ويساعد على هذا الفن فى اليابان أن حروف اللغة أشبه بالرسومات.. وهى ذات طابع تصويرى.. يضاف إلى ذلك أن الخط يدل على شخصية صاحبه.

أما الجودو فنوع من المصارعة يعتمد على «تطبيق المعرفة التشريحية فى حالتى الهجوم والدفاع. إنها تختلف عن المصارعة العادية فى أنها لا تعتمد على القوة البدنية، كما أنها تختلف عن غيرها من أنواع القتال فى أنها لا تستعين بأى سلاح.. إنها تعتمد فى الغلبة على اكتشاف جزء ضعيف فى جسد الخصم والإمساك به أو ضربه بطريقة تؤدى إلى فقد الوعى والإحساس. وبالتالى تجعل الخصم غير قادر على المقاومة.. إن غايتها ليست القتل بل غايتها التعجيز المؤقت عن الحركة» ـ البوشيدو، المصدر السابق.

ولكن .. الجودو لم تعد تثير حماس اليابانيين مثل البيسبول والجولف.. أشهر الرياضات الأمريكية.. والبيسبول هناك مثل كرة القدم عندنا.. جنون.. وغضب .. وإغماء.. وانتحار.. وهو أمر يثير الدهشة أن يستورد اليابانيون البيسبول ثم يتحمسون لها مثل أصحابها.. وربما أكثر منهم.

لكنها.. اليابان.. التى تستوعب الأشياء وتهضمها لتصبح مثل الأصل وربما أفضل منه.. فبرج طوكيو المصمم على شكل برج إيفل فى باريس

أعلى من البرج الفرنسى الشهير.. وديزنى لاند أكثر إثارة.. ولكن اللوفر فى طوكيو ليس مثل اللوفر فى باريس.. فمن الممكن أن تتفوق على التكنولوجيا لكن من الصعب أن يحدث ذلك فى الفنون.

كان الجو غائما والسماء حبلى بالمطر ونحن نعبر البحر إلى جزيرة فوجيما التى تمتد حدودها إلى ٣ كيلو مترا وترتفع بحوالى ٥٣٠ مترا فوق سطح البحر.. لذلك بدت الجزيرة من العبارة المندفعة إليها مثل جبل مغطى بالضباب والخضرة.. لكن الجزيرة تبدو أجمل عندما تصل إليها.. وأول من يستقبلك على الشاطىء. أعداد كبيرة جداً من الغزلان البرية.. إنه حيوان لا يهرب منك.. بل يتمسح فيك.. والناس تمسح ظهره بيدها.. وتطعمه.. وتلتقط الصور معه.. وهو فى عيونهم مقدس.. وفى عيوننا شهى.. يعتبرونه عين شنتو.. أشهر وأقدم ديانة فى اليابان.. وهم يعتبرون النجوم آلهة أيضاً.. لذلك فهناك آلهة بعدد نجوم السماء.. حوالى ٨ ملايين نجمة أو إله.

الجزيرة صحرية.. طرقاتها ترتفع وتنخفض وتلف مثل الأحزمة حول الجبل وتطل فى معظم الأحوال على البحر.. وتعيش الجزيرة على السياحة وصناعة الكيك .. فهم يصنعون الكيك أمامك.. من العجن إلى التغليف دون أن يلمسوه بأيديهم.. أنت الذى تمد يدك وتأخذ قطعة تتذوقها مع الشاى، نوع من الكرم.. ونوع من الحرج لتشترى علبة.. لكنى لم أُحْرَج، لا وأنا أتذوق الكيك الهش، الناعم، الخفيف الذى يذوب فى الفم كالنسيم.. ولا وأنا أطلب الفرجة على فندق «كمافوكو» المبنى على الطريقة اليابانية.. حيث يخلعون أحذيتهم على الباب، ويفرشون الأرضية بحصائر التاتامى الرقيقة، ويستخدمون الورق المقوى فى تغطية الأبواب

والنوافذ.. إن قيمة الأشياء البسيطة المتواضعة تتضاعف عندما نحترمها ونقدرها..

فالنحاس الذى تحترمه أجمل من الذهب الذى تهمله.. والقطن الذى تقدره أفضل من الحرير الذى تهينه.. وعلى هذه القاعدة الحضارية ازدهرت اليابان.. فكل شىء له قيمة.. وكل شىء يجب التعامل معه بمقدار مناسب وفى توقيت مناسب.. حاول أن تجرب هذه القاعدة. ستتغير أشياء كثيرة فى حياتك.. ستشعر بالامتلاء.. والثراء.. والحيوية.. وستطرد الملل والزهق وستحصل على أصعب عملة فى زماننا.. السكينة.

وأجمل وأشهر ما فى الجزيرة معبدها الذى تغمره المياه.. إن معابد ديانة الشنتو تبدأ ببوابة من الخشب.. حمراء.. تبدو مثل حرف من حروف اللغة اليابانية.. والبوابة تكون بعيدة عن المعبد.. إنها تحدد الطريق إليه.. وبوابة هذا المعبد والطريق إليه فى الماء.. أى الدخول إليه من الماء.. حث كان المحاربون ينتهون من معاركهم ويستقلون سفنهم ويصلون إلى هنا.. ليصلوا.

والصلاة فى أى وقت.. فلا مواعيد محددة لها.. وهم يسبقون الصلاة بالوضوء.. والوضوء سهل.. مجرد غسيل للفم واليدين.. ومكان الوضوء عبارة عن حوض من المياه عليه مغارف من الخشب تعبأ بماء الوضوء والصلاة فردية.. تبدأ بالوقوف أمام المبعد.. ثم إلقاء قطعة من النقود الفضية فى صندوق أشبه بصندوق النذور.. ويجب إلقاء قطعة النقود بقوة وكأنك تلقيها فى وجه أحد.. وهو طقس غريب من شعب مهذب.. ثم.. يصفقون بقوة أيضا قبل الصلاة.. فهل الإله نائم ويوقظونه؟.. سألت بحذر، فقالوا بحماس: نعم.. فبعض الآلهة كانت بشرا وارتقوا بأعمالهم حتى أصبحوا

آلهة.. إن الإنسان المخلص الأمين الذى يعمل ويكد ويجتهد ويضيف إلى الناس هو مشروع إله.. وهذا يفسر احترامهم للعمل وتقديرهم وتقديسهم لمن يعمل.

ولأن الاله يمكن أن يكون فى الأصل إنسانا فهو إذن ينام ولابد من إيقاظه قبل الصلاة له.. إما بالتصفيق الحاد أو بدق الأجراس المعلقة.. ولاتستغرق الصلاة إلا ثوان.. وتبدأ بضم الكفين ثم رفعهم إلى مستوى الأنف ثم ترديد بعض الكلمات همسا.. ودمتم.

إن ديانة الشنتو أكثر الديانة اليابانية تميزا.. وكانت تتمركز فى الماضى حول عبادة مظاهر الطبيعة.. الشمس، الجبال، الأشجار، الماء، الصخور.. ثم أضافت الخصوبة.. فكان أن ضاع الخط الفاصل بين الإنسان والطبيعة أو الإنسان والإله.. وفى هذه العقيدة لا مكان لفكرة «الخطيئة الأولى».. بل هى «على العكس تؤمن بفطرية الخير فى الإنسان وأصالة روحه التى تقترب فى طهارتها من أرواح الآلهة.. هكذا تنظر ديانة الشنتو بإكبار وإجلال لروح الإنسان تعتبرها قدس الأقداس الذى تنبع منه كل الفضائل».

والجزء الرئيسى فى المعبد هو الهيكل.. وهو يخلو من الزخارف والتماثيل ليس فيه سوى مرآة صافية معلقة على الحائط.. «إن وجود هذه المرآة يمكن شرحه وفهمه على أساس أنها تصور القلب الإنسانى وتمثله.. ذلك القلب الذى يمكن أن تنعكس على صفحته صورة الآلهة إذا تطهر من الدنس وصار شفافا».. إنك هنا لا تعرف نفسك وإنما تراها على حقيقتها.. أو تعرف نفسك من الداخل لا صورتك من الخارج.. والمعرفة هنا أخلاقية.. روحية.. فلا يهم هل أنت حاكم أو محكوم.. المهم هل طيب أم شيطان؟.

وفى كتابه «البوشيدو» يقول انيازو نيتوبى: إن عبادة الطبيعة فى الشنتو قد زرعت فى أعماق نفوسنا حب الوطن، فى حين أدت عبادة الأسلاف ـ التى توارثها اليابانيون جيلا بعد جيل ـ إلى أن تكون الأسرة الإمبراطورية أساس قوميتنا ومحور أمتنا.. إن الوطن بالنسبة لنا ليس مجرد الأرض التى نزرع فيها الحبوب، أو التراب الذى نستخرج منه الذهب، إنه أكبر من ذلك بكثير، إنه مواطن الآلهة ومرقد أسلافنا العظام، والإمبراطور أيضا ليس مجرد حاكم أو راع أو حتى حام ولكنه أكبر من ذلك ـ إنه الرمز الذى تتجسد من خلاله كل من الأرض والسموات وتمتزج فى شخصيته صفات الرحمة والجبروت.

أما أدوين رايشاور فيقول: إن عبادة الآلهة فى الشنتو تتم من خلال تقديم العطايا وأداء الصلوات وإقامة المهرجانات المرحة داخل المعابد التى يزورها اليابانيون للتبرك.. وتعرف جميعها باسم بوابات التورى ـ TORII وكانت تلك المعابد أو «المزارات» مكرسة للأباطرة الأجداد أسلاف الآلهة، أو أرواح بعض الظواهر الطبيعية البارزة مثل جبل كبير أو شلال جميل أو حتى شجرة بسيطة أو صخرة غير عادية.

وفى المعبد الذى نزوره الآن وفى المعابد الأخرى.. «سوبر ماركت» يبيعون فيه الأحجبة الجاهزة.. أى الأحجبة التى تناسب الجميع والتى لا تحتاج إلى قطعة من ثياب شخص أو اسم أم شخص آخر أو صورة شخص ثالث، حسب طلبات الدجالين فى مصر، ولا تحتاج لكبد هدهد يتيم أو جناح عصفورة ماتت أمها وهى تخرجها من البيضة.. حسب طلبات «الأسياد».. أمامك فانزينة فيها أحجبة ملونة ومزخرفة بالنقوش والخيوط.. كل حجاب له لون ومقاس ووظيفة وسعر.. فهناك حجاب للصحة.. وحجاب

لحماية الأطفال.. وحجاب لقيادة السيارات.. والنجاح، والثرثرة.. والعشق.. والإنجاب.. والسعر حسب الحجاب وهو يتراوح ما بين ٣ و ٨ دولارات.. فلو كنت تؤمن بالخرافة فمد يدك واشتر ما تريد، ولا داعى للبهدلة والبحث عن دجال فى حوارى وأزقة الأحياء الشعبية.

وفى سوبر ماركت الخرافة لوحات صغيرة من الخشب فى حجم «الكارت بوستال» يشترونها ويكتبون عليها أمنياتهم ويتركونها فى المعبد.. التلاميذ يحلمون بالنجاح.. والمرضى يحلمون بالشفاء.. والبنات يحلمن بالستر.. إنها مثل الرسائل التى يكتبها الناس فى مصر إلى أولياء الله الصالحين يشكون فيها الفقر والقهر والهجر.. ويتمنون فيها رفع الظلم والتوفيق فى العلم.. لكن هذه الرسائل فى مصر مجانا، بدون طابع البوستة.. وفى اليابان بخمسة دولارات.

ويمكنك أيضا أن تقرأ الطالع.. دولاراً واحد يكفى.. ضع العملة فى فاترينة صغيرة من الزجاج خلفها تمثال لراهب، يتحرك بالكهرباء، ويدخل المعبد الصغير المجسم أمامك ليصلى، ثم يعود ويلتفت إليك وهو يحمل ورقة ملفوفة، أو مبرومة، يخرج لك فيها بختك.. وهى لعبة مسلية لا تختلف كثيراً عن قراءة البخت بالفئران البيضاء التى كانت منتشرة فى مصر، خاصة على الشواطىء.. حيث تفرد رقعة من الخشب تمتلىء بمكعبات صغيرة فى كل منها ورقة بخت مختلفة، ثم يطلق الفأر الأبيض ليختار لك ورقة تعبر عن حظك.. وتكشفه.

والبخت اليابانى خمس درجات.. وعباراته مختصرة.. مثل.. احذر المرأة

التى تحبك.. انتبه لأن الأشياء يمكن أن تضيع منك.. لا تأمن للآخرين بسهولة.. سمعتك وصحتك قبل شهرتك وثروتك.

وقد حذرنى بختى من ضياع حقائب السفر، ولم أعرف كيف أحافظ عليها، فهذه مهمة شركات الطيران.. وحذرنى بختى من قسوة السلطة وبطشها، ولم أعرف كيف أستفيد من التحذير.. فهذا قدر كل من يلعب بالنار لعبة الحرية.. وحذرنى بختى من غدر الأصحاب.. ولم أقبل التحذير.. فالبديل هو العزلة.. أو النفى الداخلى الذى هو أخطر أنواع المنفى.. ففيه أشعر أن لغتى معتقلة، وذاكرتى معتقلة، وأوراقى التى أكتب عليها معتقلة.. وأنا أؤمن بأن الجنة لو أخذت شكل المنفى أصبحت مرفوضة.. فالجنة بدون ناس لا تنداس.

وفى كل معبد شجرة محددة تُربط على فروعها أوراق الطالع معك حتى لا تضيع منك ويضيع حظك معها.

إن الخرافة جزء من عقل الناس لم يفلح العلم والتكنولوجيا فى إزالته.. إننا نغير ملابسنا وأفكارنا وكلامنا ومنطقنا.. ولا نغير إحساسنا بالخرافة.. إنها تدخل بيوتنا مع الأثاث وتقيم علاقات قوية مع السجادة والفراش والكومبيوتر.. ومع الجنس الآخر الذى نتزوجه.

وأتذكر أننى ليلة السفر إلى اليابان سألت نجمة سينمائية لامعة عما تريد من طوكيو؟

فقالت: هناك معبد فيه عين ماء لو بللت فيه عملة ورقية، جاءتك ثروة خرافية!

وسألتها: وهل فعلت ذلك وأنت فى اليابان؟

قالت: نعم!

فسألتها: وأين ثروتك الطائلة؟

ولم ترد.

لكن.. الناس ليست فى حاجة إلى دليل حتى يوافقوا على الخرافة، أو يعطوها ظهورهم.. فهى أكذوبة لذيذة بشرط أن تكون بيضاء.. أى بشرط ألا تتحول إلى هوس عقلى يفقد الإنسان روحه قبل ثروته، وحكمته قبل مستقبله.

ويؤمن اليابانيون أكثر بقراءة الكف، ويعتقدون أنه علم بحوره «غويطة» وله مراجع وأصول وخبراء وتلاميذ.. لقد حاولت امرأة جذابة، مثيرة مغرية، فى الثلاثين إقناعى بذلك.. والحقيقة أن جمالها يكفى إقناعك بأى شىء.. إنها امرأة نزار قبانى فى قارئة الفنجان.. عيناها سبحان المعبود. فمها كالعنقود.. والشعر الغجرى المجنون يسافر فى كل الدنيا.. والأدق أنك معها تنسى الدنيا.. وعندما تمسك بكفك وتضعه فى كفها وتحرك على خطوط العمر والحظ والصحة فى راحة يدك أصابعها فأنت طويل العمر وحسن الحظ وصحتك «بمب».. وساعتها أيضا ستقول دون تردد وبحماس هائل: إن علم الكف هو علم و«نص» أيضا.

على أنك يجب أن تبرر لليابانيين ولعهم الشديد بكشف سواتر وحواجز وغيوم وأستار المستقبل فهم يعيشون فى قلق وخوف من الزلازل والأعاصير التى قد تنقلب عليهم فى أى لحظة.. إن الطبيعة فى اليابان مثل امرأة «غيورة» يسهل استفزازها.. وإثارة غضبها.. ويصعب الحصول على سكينتها.

أنا شخصيا ذقت طعم هذا الغدر، عندما قرر إعصار التيفون أن يأتى مبكرا قبل موعده بشهور ليرحب بى ترحيبا«عاصفا».. فقد طرت فى الهواء.. وحاولت الإمساك بعامود فى الشارع فخرجت ملابسى من أماكنها.. وانهمر المطر وسال أنفى.. ورحت أعطس.. وفكرت فى السفر فورا لكن حركة الطيران تعطلت.. وحاولت أتفرج على طوكيو من مبنى البلدية الذى يصل إلى ٦٠ طابقا.. لكن الأسانسيرات توقفت.. وليس أمامك فى هذه الحالة سوى العودة إلى الفندق بشرط ألا يحدث زلزال.

وقد فوجئت وأنا فى الجزيرة بالمطر ينهمر بشدة.. فى ثانية واحدة تكاثفت الغيوم، واختفت الشمس، وانفتحت السماء الحبلى بالمياه.. وكان أن دخلت أقرب محل واشتريت مظلة.. إنها تباع فى أى مكان مثل السجائر والمياه الغازية واللبان.. لكنها فى طقس اليابان الممطر العاصف تحتاج إلى خبرة وإلا طارت منك.. وربما طرت أنت معها.. وفى هذه الحالة ستصبح مثل أبطال مسلسلات الأطفال.. بطوط.. أو باتمان.. مثلا.

وأسعدنى كثيراً أن أترك المظلة وأخلع الحذاء وأدخل متحفا تكشف مقتنياته عن موهبة اليابانيين وبراعتهم فى التفاعل الحضارى مع غيرهم.. ففى المتحف آلة مثل العود جاءت من بلاد فارس، أو إيران الآن اسمها «بيوا» لها خمسة أوتار وصندوقها ليس أجوف، وانتشرت ابتداء من القرن التاسع، ووصلت إلى اليابان عبر طريق الحرير الممتد من بكين إلى طهران.

وفى المتحف إناء من الحديد اخترعه كونفوشيوس لتعليم أتباعه الحكمة.. قطعة من الحجارة مدلاة فى طرفى خيط، أشبه بالسلسلة التى تعلقها المرأة على صدرها، تقترب من سطح ماء فى الإناء.. لو اقتربت أكثر

فقدت توازنها على سطح الماء.. ولو ثقلت أكثر اهتزت على سطح الماء.. ولو زاد سطح الماء فقدت توازنها.. وقطعة الحجارة رمز لكل ما يحلم به الإنسان ولكل ما يحصل عليه.. الثروة، السلطة، القوة، الشهرة، الشجاعة.. لو حصلت عليها أكثر من اللازم فقدتها أو فقدت توازنك.. يجب أن تحافظ على إحساس الحرمان حتى تحافظ على الثروة.. وقليل من الضعف يعطى معنى للقوة.. وبعض التواضع ضرورة حتى لا تنقلب الشهرة عليك.. والسلطة الغاشمة إذا لم تعرف الرحمة أصيبت بعمى الألوان وانتهت نهاية الثيران فى حلبات المصارعة الأسبانية.

باختصار.. لا تطمئن ولا تغتر ولا تثق فى شىء أنت تملكه ولا تتصرف على أنك مالكه الوحيد.. ففى هذه اللحظة أنت مهدد بأن تفقده.. بل والمؤكد إنك ستفقده.

إن كونفوشيوس هو أشهر الحكماء والعلماء الذين ولدوا فى الصين ونشروا تعاليهم وفلسفتهم خارجها حيث أصبحت بمثابة ديانة فى شرق آسيا، ثم أخذت طريقها للعالم رغم أن صاحبها ولد وعاش قبل الميلاد بحوالى ٥٠٠ سنة..

واليابانيون تأثروا بالكونفوشية قبل الصينيين، وهم يطلقون على هذه الفلسفة «تعاليم العلماء»... وهذه التعاليم التى آمنوا بها وحفظوها ونفذوها تجاوزت تأثير الديانات عليهم فيكثير من الأحيان، وجعلت العلمانية هى الأصل فى عقولهم.. ومن ثم لم تؤثر عليهم التفسيرات الخاطئة للأديان، ولم تضعهم فى الصفوف الأخيرة.

وتتلخص الفلسفة الكونفوشية فى التأكيد على أن الطبيعة «نظام عاقل».. يكون الإنسان «عنصرا منسجما فيه».. كما يؤكد أن النظام الاجتماعى يقوم على قواعد أخلاقية صارمة.. «تقف على قمته دولة موحدة، يحكمها رجال ذوو علم وحكمة أخلاقية رفيعة».

والكونفوشية لها نصوص تصل إلى حد التقديس.. «لكن دون مفهوم للألوهية ودون مناصب كهنوتية».. أى بدون رجال دين لهم سطوة وثروة.. «ومع قليل جداً من الطلقوس الدينية».. وبالتالى «لم تشتمل هذه الفلسفة على عبادة ما، وإنما أكدت فقط على التفكير السديد والحياة السليمة» من خلال مبادىء أخلاقية خمسة تنظم العلاقات الأساسية فى المجتمع.. وربما فى الحياة بين الحاكم والمحكوم.. والأب والابن.. والزوج والزوجة.. والصديق وصديقه.. وبين الأخ الأكبر وأخيه الأصغر.

ورغم أن الكونفوشية لم تصمد طويلا أمام تحديث اليابان فى أواخر القرن التاسع عشر، حين أصبحت مفاهيمها عن الكون لا تبدو صائبة، فإن القيم الأخلاقية للكونفوشية مازالت راسخة فى أذهان اليابانيين أكثر من أية ديانة أو فلسفة أخرى.. إنهم كونفوشيون تحت السطح.. أو تحت الجلد.. «حيث تتمثل الكونفوشية الآن فى الاعتقاد بأساس الحكومة الأخلاقى والتركيز على العلاقات المتداخلة بين الأفراد والولاء للحكام والآباء والإيمان بالتعليم والعمل الشاق».. ويستطرد أدوين رايشاور: «وهذه الاعتقادات الراسخة هى التى تقف وراء تقبل اليابانى الشديد والمخلص للعلم الحديث، وللمفاهيم العصرية للتقدم والنمو والمبادىء الأخلاق العالمية. وإذا كان

المواطن اليابانى اليوم لا يعتبر نفسه.. كونفوشيا على الإطلاق إلا أننا نجد أن اليابانيين جميعا بصورة أو بأخرى كونفوشيون تقريباً».

ولهذا السبب لا يتباهى اليابانيون بثقافتهم.. فالثقافة والمعرفة يجب أن تتحول إلى نور وحياة أفضل.. فالكتب ليست مطلوبة لذاتها.. بل هى مطلوبة بوصفها وسيلة للوصول إلى الحكمة.. فأن تعرف ليس إلا أن تفعل، إنهما شيء واحد.. ولو انفصلا تحول المثقف إلى ثرثار أو «صرصار» لا فرق.. أو تحول إلى «بغبغان» أو «فأر كتب» وهو تعبير يابانى قديم.

وفى كثير من أقوال الفلاسفة الذين يقدسهم اليابانيون مزج بين نور الله ونور العقل.. فهناك من يقول: «إن رب السموات والأرض ورب كل الكائنات الموجود فى قلب الإنسان يصبح عقله.. لذلك فالعقل كائن حى ونور أزلى لا يخمد».. ويقول أيضا: «إن النور الروحى الذى نعتمد فى وجودنا الأصلى عليه نور نقى طاهر ولا يتأثر بإرادة الإنسان و يخضع له. وحين يسرى هذا النور فجأة فى عقولنا، فإنه يكشف لنا عن الصواب والخطأ وحينئذ نسميه الضمير ولكنه فى الحقيقة ليس إلا النور الذى يأتى من رب السموات» ـ (المصدر: البوشيدو.)

ولو كانت الكونفروشية تهتم بسلوك البشر فى الحياة اليومية، فإن الطاوية تخاطب جانبا أكثر روحانية فى حياة الإنسان.. والطاوية من الطاو.. والطاو عنوان كتاب عمره يمتد إلى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وضع فيه لوتسو (وهو رفيق كونفوشيوس القريب) خلاصة الحكمة من خلال ٨١ قطعة أشبه بالقصيدة، جمعت فى كتاب هو من أكثر الكتب طبعا ومبيعا فى العالم كله بعد الإنجيل، وقد ترجمه عن الإنجليزية الأديب المتميز علاء الديب..

لكن لا أحد انتبه للطاوية لأننا غارقون فى الطوبية.. أى الضرب بالطوب.. أو التطاولية أى التطاول على الآخرين.. أو الأنانية.. والكلمة مفهومة.

وطبقا للأسطورة القديمة فإن لوتسو هجر الحياة كلها ورفض أن يسجل الحكمة يأسا من أحوال الناس وشرورهم وعدم جدارتهم بالحكمة، وانطلق وحيدا مع حماره. إلا أن حراس الحدود أجبروه على تسجيل كلماته، ثم جمعوا هذه الكلمات، فكانت حكمة الطاو التى أثرت فى الروح البشرية والثقافة الأسيوية.

وحسب تفسير علاء الديب فإن الفلسفة الطاوية بسيطة: اقبل ما أمامك.. لا ترغب في أن يكون الحال غير ما هو عليه.. الطبيعة تقدم كل شيء دون أن تنتظر شكرا أو أجرا.. هى تقدم عطاءها للجميع دون تفرقة أو تميز.. «لذلك دعنا نقابل الجميع بوجه واحد، ونعامل كل الناس بالمساواة. إذا أمعنا النظر لوجدنا أن العمل ينجز ببراعة وسرعة أكثر، لو توقفنا عن تعمد المحاولة، وتوقفنا عن أن نبذل من أجل الحصول على الأشياء جهدا أزيد من اللازم، وتوقفنا أيضا عن انتظار وتوقع النتائج.. فى العقل الساكن المفتوح، سوف تنعكس الحقيقة.. حينئذ نستطيع تذوق المعنى الحقيقى للعالم».

هذه هى الخلاصة.. ولكن قليلا من التفاصيل يصلح الحياة:

١ ـ لو تجردت من الرغبة لعانيت المجهول. ولو تبعت الرغبة لما شاهدت سوى الظاهر.

٢ ـ الفقر والغنى ينبعان من نفس المصدر، الصعوبة والسهولة يكمل كل منهما الآخر، الأمام والخلف يتبع الواحد منهما الآخر.

٣ـ عدم استعراض المواهب يمنع المشاحنة، وعدم جمع الكنوز يمنع السرقة، والامتناع عن رؤية الأشياء المشتهاة يمنع ارتباك القلب.

٤ ـ فى السكن كن قريبا إلى الأرض، فى التأمل كن عميقا فى القلب، فى التعامل مع الآخرين كن رقيقا، فى الحديث كن صادقا، فى الحكم كن عادلا، فى العمل كن دقيقا، فى الحركة راقب التوقيت.

٥ ـ الألوان الخمسة تعمى العين، الأصوات الخمسة تصم الأذن، الإحساسات الخمسة تفسد الذوق، التسابق والقنص يذهب العقل، الأشياء الثمينة تقود المرء للضلال.

٦ ـ أحب العالم كأنه نفسك، حينئذ تستطيع بحق أن ترعى كل الأشياء.

٧ـ من لا يثق لا يوثق به.

٨ ـ انبذوا الشطارة واحتقروا المكسب يختفى اللصوص والنصابون.

٩ ـ تخلى تتفوق. افرغ نفسك، تمتلىء ارض بالقليل تصبح غنياً.

١٠ ـ اعرف الأبيض لكن احتفظ بالأسود. اعرف الكبرياء لكن اعتصم بالتواضع.

١١ ـ حقق النتائج لكن لا تتشدق ولا تتفاخر ولا تتكبر.. حقق النتائج لأن هذه هى طبيعة الحياة.

١٢ ـ معرفة الآخرين.. حكمة.. معرفة النفس.. كشف.. قيادة الآخرين تتطلب قوة.. قيادة النفس تقتضى القدرة.

١٣ ـ الذى ينكمش لابد أولا أن يتمدد.. هذا الذى ينهار لابد أنه كان متينا من قبل.. ما يطرح أرضا، لابد أنه كان مرفوعا من قبل.. قبل الأخذ، لابد أن يكون هناك عطاء.

١٤ ـ الرجل الطيب حقا لا يلتفت إلى طيبته، لذلك هو رجل طيب.. الأحمق هو من يجاهد ليكون طيبا.. إنه لا يكون طيبا أبدا.

١٥ ـ صفاء السماء يمنع سقوطها.. صلابة الأرض تمنعها من التشقق.. وقوة الروح لا تجعلها تستهلك.

١٦ ـ الخطيئة الكبرى هى الرغبة.. اللعنة الكبرى هي عدم الرضا.. سوء الحظ الأكبر هو الرغبة فى الحصول على الأشياء.. من يعرف أن الكفاية كفاية، يحصل دائما على ما يكفيه.

١٧ ـ إننى طيب مع الرجال الطيبين، وأنا طيب أيضا مع غير الطيبين، لأن الفضيلة هى الطيبة.. أثق فى الرجال المخلصين وأثق فى غير المخلصين لأن الفضيلة فى الإخلاص.

١٨ ـ احتفظ بفمك مغلقاً، وراقب حواسك تجد الحياة مليئة.. افتح فمك وكن دائما مشغولا لا تجد فى الحياة أملا.

١٩ ـ عندما يكون بلاط الحاكم غارقا فى الفخامة فإن الحقول تمتلىء بالحشائش والأعشاب وتفرغ مخازن الحبوب، ويرتدى بعض الناس ملابس مزركشة، ويحملون أسلحة حادة، ويملأون بطونهم بالطعام والشراب، وتصبح ممتلكاتهم أكثر مما يستعملون.. هؤلاء هم السادة اللصوص.

ولا أضيف.

لأن حكمة واحدة تكفى. ■



أولياء الله فى اليابان!

فى طفولتى كنت أشعر أن الله يقيم إقامة دائمة فى صدرى، ويسافر ليلا ونهارا فى شراييني.. كنت أشعر أنه يحرسني ويحفظني ويحميني.. فلعبت ألعاب الخطر واحترفت مهنة التوتر والتهور ولازلت على قيد الحياة. لكن.. فى المدرسة حولوا دروس الدين إلى دروس فى الرعب وكأننا فى متحف للشمع أو فى بيت للأشباح.. فرأينا جهنم لا الجنة.. ورأينا الشيطان لا الحنان.. وشممنا رائحة الشياط والشواء التى تنبعث من أجسادنا المحترقة فى

الجحيم قبل أن نشم رائحة الفل والندى فى قصة الأميرة النائمة والأقزام السبعة. لقد أفزعونا بعذاب القبر وأهوال يوم القيامة ونحن لانزال على عتبة البداية.. أرادوا أن يهاجر الله من قلوبنا الخضراء البريئة.. وشوهوا نفوسنا البيضاء الصافية.. وكسروا زجاجات العطر.. وعلمونا أن العقل ينقض الوضوء.. وأنه لافرق بين الدين والديون.. فهما مثل كمبيالات مستحقة الدفع والسداد.

إن الدين الذى يمنحنا السلام الداخلى تحول على أيدى البعض إلى أفلام وإعدام وكلام وخصام.. فكان التعصب والتشدد والاهتمام بالمظهر لا الجوهر.. وكان العنف والقتل والقلم الذى أصبح قنبلة.. وكان الجمود والجحود والاكتفاء بالحدود والسعى إلى التكفير لا التفكير.. وكان الفقر والقهر والتراث الذى انقلب إلى ثبات.

وفى المقابل برزت ثقافة مدنية تحاول صياغة الحياة صياغة علمية، عصرية، عقلية، فتمزق الوطن، وانقسمت هويته، وثقافته، وأحس بالضياع بين الأزهر والجامعة الأمريكية.. بين الإمام الشافعى وكارل ماركس.. بين تفسير «الحاكمية» ونظرية المادية الجدلية.

وهذا الضياع تحول إلى أفكار خاطئة وحروب فكرية أهلية ومعوقات ذهنية عطلت التنمية.. ومن ثم أصبحت الثقافة هى العنصر الفعال الغائب فى برامج الإصلاح الاقتصادى والسياسى.. فالثقافة هى التى تحدد رؤيتنا للأشياء.. وثقافتنا مهزوزة..

ورؤيتنا للأشياء أيضا!

وقد نجحت اليابان فى ذلك.. فالدين فى اليابان يتجاوز الشعائر ويهتم بالسلوك ويرفع البشر إلى السماء بالموهبة والرحمة والكفاءة والشفافية والخدمة العامة.. إنهم يعرفون الله بالعقل، بالعمل، وبالعلم، وبالاجتهاد، وبالشعر، والرأى الجرئ، وبالانتماء إلى الوطن.

وأولياء الله عندهم هم الذين أضافوا للحياة أراضى خضراء، مثمرة، ومصانع لاتتوقف عن الإنتاج، ومدارس متطورة المناهج، وجامعات لايفكر فيها الطلبة ـ كما هو الحال عندنا ـ بأقدامهم.

ولو كان محمد على وسعد زغلول وجمال عبد الناصر وطلعت حرب ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وصلاح عبد الصبور ومحمد حسنين هيكل ولويس عوض وزكى نجيب محمود وسهير القلماوى وأمينة السعيد قد ولدوا وعاشوا وأبدعوا فى اليابان لأصبحوا أولياء لله. وأصفياء لله.. وأصدقاء لله، فقد جعلوا الوطن أفضل ومن حقهم أن يرتفعوا إلى مرتبة السماء وأن تكون لهم معابد بأسمائهم يوقد فيها الناس الشموع.

فى كيوتو العاصمة القيمة لليابان سمعت قصة الوزير ميتزين سوجورا الذى وشوا به عند جد جد الإمبراطور الحالى، فأمر بنفيه.. وفى المنفى مات كمدا.. لكن روحه عادت فى صورة إله فأصبح له أكثر من معبد باسمه... وسمعت قصة قائد الجيوش مارسكين فوجى الذى انتحر عندما علم بنبأ وفاة الإمبراطور ميجى.. أراد أن يكون معه فى السماء بعد أن كان معه فى الأرض.. منتهى الوفاء والإخلاص.. فنبوا له معبدا.

وفى كيوتو عرفت حقيقة مذهلة.. أن اليابانى يمكنه أن يعتنق أكثر من ديانة فى الوقت نفسه.. فلا حواجز ولا أسوار بين الأديان.. لذلك فعدد

أتباع الديانات المختلفة ضعف عدد اليابانيين، لأن كل يابانى يعتنق ديانتين على الأقل.. وحوالى ٥٤٪ من اليابانيين يعتنقون الشنتوية و ٤٠٪ يعتنقون البوذية.. وأقل من ١ ٪ يعتنقون المسيحية.. ويسهل أن يصلى اليابانى فى معبد وكنيسة فى يوم واحد. ويسهل أن يتزوج على طريقة الشنتو ويدفن على الطريقة البوذية.. وهو ماجعل التعصب الدينى صفة غير موجودة فى اليابان.. فالمعتقدات اليابانية مفتوحة.. غير مغلقة.. وتتسع لاستيعاب غيرها من المعتقدات.. ومن الثقافات... والاختراعات!

واليابانيون متدنيون على عكس الانطباع الذى يخرج به الزائر الأجنبى العابر.. لكن تدنيهم ليس شكليا.. وإنما ذاتى.. فالدين عندهم يحد العلاقة بين الإنسان والكون.. ويحدد العلاقة بين الإنسان والإنسان.. أما مبدأ فصل الدين عن الدولة فهو مبدأ فرصته القوى الغربية فى «نص الدستور الذى تمت صياغته بعد هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية»..

وقد اشتعلت أزمة سياسية فجرتها الولايات المتحدة والصين وكوريا احتجاجا على زيارة رئيس الوزراء اليابانى لأحد معابد الشنتو وهو معبد ياسكونى فى طوكيو.. وهو معبد مخصص للصلاة. على شهداء الحروب.. وقد اتهموا رئيس الوزراء بخرق الدستور الذى ينص على الحياد الدينى.. اتهموه بالانحياز للشنتو.. وكان رده أنه يصلى بصفته الشخصية لابصفته الرسمية.. واتهموه بإحياء النزعة العسكرية.. فمعبد ياسكونى معبد الصلاة من أجل الحروب.. وتضاعف الهجوم على المسئولين الذين يصلون فى هذا المعبد بعد حرب الخليج واشتراك اليابان فى قوة حفظ السلام.. فمثل هذه الصلوات تشجع على الحروب.. خاصة أن بالقرب من هذا المعبد متحف

يوشوكام الحربى.. وقد زرت المعبد والمتحف وشاهدت صورة فوتوغرافية نادرة للإمبراطور هيروهيتو وهو فى الزى العسكرى خارجا من المعبد وخلفه القادة وقد أحنوا رؤوسهم.. وفى المتحف أسلحة الحرب وأسرارها.

والاعتراض على أن يصلى رئيس الوزراء فى معبد دون غيره وينحاز لديانة دون غيرها معناه أن قضية الدين فى اليابان ليست بالبساطة التى تبدو بها أو التى نحن بالذات نراها.. فنحن نراها بمفاهيمنا وثقافتنا.. وهذا خطأ شائع.

وفى اليابان ٢٣١٤٢٨ معبدا وكنيسة، وهو رقم لايستهان به وليس من السهل تجاهله وأجمل المعابد وأشهرها فى كيوتو.. العاصمة الروحية التى لايزال على شفتيها حليب الطفولة وفى أنفها رائحة البخور، وفى عروقها بقايا الساموراى، وفى ضميرها صلوات هادئة فى معابد تجدها دائما فى مرمى البصر.. إنها المدينة الوحيدة التى لم يدمرها الأمريكيون فى الحرب العالمية الأخيرة حفاظا على تراثها المعمارى والإنسانى.. ونحمد الله أن ضميرهم استيقظ فى اللحظة المناسبة قبل إلقاء القنابل الثقيلة عليها. لكن كيوتو القديمة أصبحت مخنوقة الآن بناطحات السحاب الأسمنتيه الخالية من الذوق والجمال.. وهو نوع من أنواع التدمير الحضارى مارسه اليابانيون بأنفسهم..

وكيوتو تقع على بعد ٥٠٠ كيلو متر من طوكيو وكانت العاصمة حتى سنة ١٨٦٧ وقبلها كانت العاصمة نارا التى تقع على بعد ٣٠ كيلو مترا جنوب كيوتو.. وقد حكمت نارا اليابان لمدة ١٧٠٣ سنة ابتداء من عام ٧٩٤، وفى نهاية عصر نارا كانت البوذية قد أصبحت قوة لايستهان بها

وكان الرهبان فى معابدها هم الأكثر ثروة والأكثر سطوة.. فكان نقل العاصمة من نارا إلى كيوتو لتحجيم البوذية ورهبانها.

والبوذية أقرب للمسيحية لأنها تهتم بخلاص الإنسان وبالبعث بعد الحياة.. ولأنها ترى أن «الحياة ابتلاء يتخللها الشقاء والألم اللذان ينبعان من ارتباط الإنسان برغباته الحسية، لكن الإنسان يستطيع التغلب على هذه الرغبات بالاندماج فى الكون اندماجا مجردا من الألم إلى حد الفناء فيه».

وقد خلقت البوذية عند اليابانيين «إحساسا وديعا بالثقة فى القدر والاستسلام الكامل للأمر الواقع وتقبل المصائب والأخطار، وازدراء الحياة والاستهانة بالموت».

ودخلت البودية اليابان لأول مرة فى القرن السادس، وكانت وسيلة لنقل الثقافة والعمارة وفنون الرسم من الصين.. ولكنها جاءت أيضا بسطوة رجال الدين.. فقد أصبح رهبان المعابد البوذية من أعنى الأغنياء وامتلكوا الإقطاعيات وكانت لهم سيطرة سياسية أيضا.

إن رجال الدين عندما يحكمون تتحول المبادئ إلى سمسرة وبورصة وسوبر ماركت وتتحول المعابد إلى كواليس للمؤامرات والصراعات، وتصبح النصوص المقدسة بتفسيراتها المتعسفة سيوفا على رقاب العباد.

والعباد يدفعون الثمن دائما.. حريتهم وأموالهم.. فصاديق النذور فى كل الديانات.. وكل دور العبادة.. والحصيلة دائما مذهلة، تجعل رجال الدين فى نعيم وترف ربما لايقدر عليهما الملوك والأباطرة.

ولو تحالف رجال الدين والجنرالات كانت الفاشية الدينية هى الوجه الآخر للفاشية العسكرية.. وقد حدث هذا التحالف غير المقدس فى كل الأديان.. فى كل زمان ومكان.

وقد رأيت فى كيوتو نموذجا مبهرا لهذا التحالف.. الفيللا الذهبية.. إنها فيللا مقامة على الطراز المعمارى اليابانى مغطاة برقائق الذهب الخالص.. بناها أحد الحكام العسكريين (شوجون) فى القرن الرابع عشر اسمه يوشيمتو أشياكاما وهى جزء من معبد يقع فى منطقة جبلية تمتلئ بالخضرة والزهور البرية.

وكان هذا الحاكم العسكرى يستخدم هذه الفيللا فى دعوة ضيوفه وأصدقائه لحفلات الشاى والموسيقى والغناء.. وكان يسعده أن يغطى الجليد أوراق الأشجار.. إن هذا المشهد كان يثير شهيته للمتعة.. إنه كان فى حاجة للبرد حتى يستنفز الدفء فى عروق.. وهو ماجعله يغطى مئات الكيلومترات من الأشجار بالقطن فى الصيف حتى يشعر بالشتاء... منتهى الترف.. وقد كان الرهبان يباركون ذلك.. منتهى الفساد.

وفى منتصف الثلاثينيات أشعل كاهن صغير النيران فى الفيللا الذهبية.. كان يخدم فى معبدها.. وكان يتصور أنه ترك الدنيا بكل مافيها من نزوات ورغبات ليعيش بعيدا فى خدمة الآلهة.. زاهدا.. متعبدا.. مندمجا فى الكون مع غيره من الرهبان.. لكنه فوجئ بأن الرهبان فى هذا المعبد أكثر ثراء من رجال الأعمال.. وأكثر فسادا من رجال الكباريهات.. وعرف أن المعبد كثيرا مايصبح بيتا للدعارة.

وقد حاول رهبان المعبد أن يمرروا الحريق باتهام الكاهن الصغير بالجنون والعجز والفشل فى الحب.. قالوا: إنه أحب فتاة لم تحبه، فأحرق الفيللا ليلا، وحاول الانتحار بإلقاء نفسه من فوق الجبل لكنه لم يستطيع.. أما أمه فقد شعرت بالمسئولية فألقت بنفسها فى النهر وماتت.

وكتب هذه التفاصيل الروائى اليابانى الشهير ميشيما فى روايته «المعبد الذهبى».. وميشيما هو الأديب الذى انتحر فى مقر قيادة الأركان احتجاجا على الاحتلال الأمريكى لليابان.

وفى الرواية تشعر بمعاناة راهب شاب تصور الخلاص لا الفساد فى المعبد.. لقد كان يمسح ريقه كالمجذوب وهو يرى الحرام فى مكان النقاء.. كان يشعر أنه يطارد الوهم والسراب.. كمن يشترى سمكا لايزال فى الماء.. لم يستوعب مايجرى حوله.. إنه لا يشبه المكان ولا المكان يشبهه.. صار مكان العبادة موجعا.. صار لوحا من القصدير البارد!

وقد ساهمت مثل هذه الحوادث فى انكماش سطوة رجال الدين، فلم يبق من البوذية إلا الأساطير الشعبية عن الجنة وتناسخ الأرواح، وتحولت المعابد إلى مجرد مبان أثرية تقع فى مناظر طبيعية يزورها الناس لأسباب سياحية.. ترويحية.. ولعل الأطفال أكثر حظا فى هذه الزيارات لأنهم يلعبون فى ساحات المعابد بحرية.

أما الرهبان البوذيون فقد انكمش دورهم واقتصر على تقدم الجنازات، وتحولت المقابر المتصلة بالمعابد إلى أماكن يدفن فيها الناس موتاهم بعد حرق جثمانهم وهى عادة مأخوذة عن الهند.

ولكن بعض الرهبان فى بعض المعابد لايزال يمارس الطقوس البوذية بصورة تهز المشاعر.. وكثير من الناس يمارس الجزء الأكثر صعوبة فى البوذية وهو «الزن» أو الصوفية.. والزن عبادة روحية يذوب فيها الجسد وتصل الروح بالتأمل والزهد والخلوة والصلاة إلى الشفافية وتتوحد مع المطلق!

ولايعتبر اليابونيون البوذية ديانة أجنبية رغم أنها جاءت من الصين وتنتشر تماثيل بوذا فى المعابد والبيوت.. وبعض التماثيل لبوذا فى صورة امرأة.. هى إله الحب.. وقد رأيت هذا التمثال فى معبد كيومز فى كيوتو.. وهو تمثال من النحاس المطلى بالذهب.. مكتوب تحته: المس التمثال تعرف الحب.. المسه يتحقق كل مايريده قلبك.. ولم ألمسه.. فقلبى ليس فى حاجة إلى تمثال ليعرف الحب.. وأنا أومن بأنه لا لغة عظيمة بدون حب عظيم.. ولا مجد لكاتب لايعشق.. وبدون الحب تصبح الكتابة نوعا من التجارة.

ومعبد كيومز أشهر مكان فى كيوتو يزوره كل من يزور كيوتو.. حوالى ٤٠ ألف زائر سنويا.. والمعبد فى قمة جبل تصعد إليه بعد أن تمر بمركز المدينة التجارى.. حيث محلات الهدايا.. والمعبد مقام على جذوع خشبية قوية.. بدون مسامير.. ومن هذا الارتفاع الشاهق كان اليابانيون يمارسون هوايتهم الشهيرة.. الانتحار.. والمثل اليابانى الشعبى يقول: كأنى رميت نفسى من كيومز.. وهو مثل يدلل على الشجاعة وعدم الخوف من الموت.. وقد تراجعت هذه العادة كثيراً.

وكيومز معناها «النبع الصافى».. ويقال أن أحد النبلاء مرضت زوجته مرضاً يستحيل معه الشفاء وأصبحت على حافة الموت، وجاء الإله له فى المنام وطلب منه أن يذبح غزالة وتشرب زوجته دماءها، فصعد إلى الجبل

واصطاد الغزالة وماكاد يضع السكين على رقبتها حتى فوجئ براهب ينهاه عن ذلك قائلا: كيف تبعث الحياة من دماء ميت؟.. وفي هذا المكان تفجرت عين ماء شربت منه الزوجة المريضة وشفيت.. فأقام النبيل معبدا راح يتسع على مر الأيام.. هو معبد كيومز أو النبع الصافى.

ونبع الماء يخرج من بطن الجبل ويمد الناس أيديهم بمغارف طويلة ليشربوا منه.. ويقال: لو شربت مرة زاد عمرك سنة.. ولو شربت مرتين زاد عمرك سنتين.. ولو شربت ثلاث مرات.. ستعيش حتى يموت.. طبعا كل إنسان سيعيش حتى يموت..

ويعتبر اليابانيون المسيحية ديانة أجنبية، مستوردة، مع أن المسيحية مثل البوذية جاءت من الخارج أيضا.. لكن البوذية جزء من الثقافة والجغرافيا الآسيوية.. أما المسيحية فقد جاءت مع رجال ملامحهم غريبة.. غير آسيوية.. وثيابهم ولغتهم وطعامهم كذلك..

دخلت المسيحية على يد بعثة الجيزويت الشهيرة التى قادها القديس فرانسيس زافيير فى عام ١٥٤٩ لتنتشر بسرعة مذهلة، الأمر الذى أفزع الإقطاعيين وحلفاءهم من الرهبان البوذيين وشعروا بأن المسيحية خطر يهدد مصالحهم ويهدد وحدة اليابان السياسية، ومن تم فقد قمعوها بعنف وسقط شهداء لاحصر لهم.

ولأول مرة فرضت الدولة على الناس تسجيل أنفسهم فى المعابد لكشف المسيحى من البوذى.. واستمر الاضطهاد البوذى للمسيحية حتى عام ١٨٧٣ ، حين ساد من جديد مبدأ التسامح الدينى.. ولايزال.. ولكن هذا

المبدأ لم يوسع دائرة المسيحية.. ويقترب عدد المسيحيين فى اليابان من المليون بصعوبة.. وهم ينقسمون بالتساوى بين البروتستانت والكاثوليك. ولكن تأثير المسيحية فى اليابان أكبر من حجمها والسبب انفتاح اليابان على الحضارة الغربية بكل مظاهرها الحديثة فى الإنتاج والثياب والطعام والسفر والسهر والسينما والموسيقى والأحزاب السياسية، ومنظمات تحرير المرأة، والعمل الاجتماعى التطوعى لخدمة البؤساء والمعوقين.

وقد شعر اليابانيون بالفرح والألفة فى أعياد الميلاد، وأسعدتهم زينات المحلات فى الكريسماس، ووجدوها فرصة لتبادل الهدايا التى يعشقونها.. كما إنهم يستمتعون بأغنيات أعياد الميلاد ويحفظونها.

إن الدين عند اليابانيين وسيلة لانتقال الحضارة والثقافة أكثر منه طقوسا وشعائر.. وقد سيطرت البوذية عندما كانت الصين مصدرا للحضارة والثقافة وجاء الدور على المسيحية عندما أصبح هذا المصدر غربيا.

والثقافة بمعناها الدقيق هى طريقة حياة... وموقف من العالم.. ولايستحق كلمة «مثقف» من يكتفى بالفرجة على نهر الحياة دون أن يموت بللا.. أو يموت غرقا.

إننا نتصور الثقافة فى القراءة أو فى الاكتفاء باستهلاك السلع الثقافية مثل الفيلم والأسطوانة والمسرح دون أن نتغير.. دون أن نتحرك.. وهو ماجعلنا نعزل المثقفين عن غيرهم وننظر إليهم وكأنهم فئران كتب لاهم لهم سوى القراءة والثرثرة.

وفأر الكتب هو دائرة معارف، يطالع كل يوم عشرات الكتب فى التاريخ والأدب والفلسفة والعلوم، ويقرأ كل مايقع فى يده عن الماركسية والوجودية

والأصالة والحداثة ومابعد الحداثة.. لكنه رغم مايعرف لايتغير.. ولا يستطيع أن يتجاوز واقعه.. ولايقدر على تغيير عالمه ولاتغيير الناس من حوله..

إنه الانفصام الرهيب بين القول والفعل.. بين الكلمة والحركة.. بين حناجرنا وأعماقنا.. كل مايقال عن التغيير والتحرير لايتجاوز حدو الكلام.. أما على الصعيد الميدانى فيندر أن يسقط القتلى والضحايا.. فالمعركة ورقية.. دونكيشوتية.. استعراضية.

ونحن لانفهم أنفسنا ولانفهم غيرنا.. أو نفهم غيرنا على طريقتنا فنخسر أكثر مما نكسب.. وأحيانا نخسر فقط.. لقد خسرنا كثيرا لأننا لم نفهم الثقافة اليابانية والشخصية اليابانية.. إن هذه الشخصية التى تعتمد على نفسها تقدس العمل وترفض التسول والبقشيش. وتسدد ما عليها، فوجئت بما طلب منها فى نادى باريس بعد حرب الخليج.

كانت مصر قد طالبت بإسقاط جزء من ديونها بعد حرب الخليج وتفهمت الدول المتحالفة فى الحرب هذا المطلب لأن مصر كانت إحدى هذه الدول، كما أن الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ترى أن الديون وسيلة من وسائل الضغط على الدول الفقيرة لتنفيذ سياساتها وأن إسقاط هذه الديون يمكن أن يكون مكافأة سياسية.

لكن.. اليابان بثقافتها الخاصة لم تفهم ذلك.. لم تفهم كيف تقترض دولة ولاترد ما اقترضت؟.. إن الذى لايعرف البقشيش لايمكن أن يستوعب عملية إسقاط الديون.. ولم يكن لليابان سوى بضع مئات من ملايين الدولارات كانت بفائدة ٣٪ على ٣٠ سنة.. أى أفضل شروط للقروض..

وجرت بين اليابان وغيرها من الدول فى نادى باريس مناقشة بدت غريبة لجميع الأطراف.. وقد بدأت المناقشة بتساؤل من اليابان:

لماذا تسقط الديون على مصر؟

ـ لأن مصر حاربت معنا فى حرب الخليج.

■ نحن أيضا خضنا حروبا كثيرة ولم تسقط عنا الديون.

ـ لكن مصر خسرت الكثير بسبب الحرب.

■ واليابان خسرت الكثير بسبب الحروب.

ـ هذه هى طبيعة العلاقات الدولية.

■ أن تقترض الدول ولاتسدد.. إننا لانستوعب ذلك.. ولانستطيع أن نقنع به شعبنا.

وبالفعل لم يستوعب الشعب اليابانى فكرة أن تقترض دولة ولاتدفع فكان أن اعتبرت الحكومة اليابانية أن الاقتصاد المصرى يعانى الضعف والإرهاق.. اقتصاد أسود.. وهى شهادة سيئة تحرمه من القروض.. وتجعل الشركات اليابانية غير مطمئنة.. وهو ماجعلها تحرج من مصر بعد أن راحت واحدة بعد الأخرى تغلق أبوابها دون أن نعرف السبب الحقيقى.. وهو أننا لم نفهم طبيعة الثقافة والشخصية اليابانية.. ولو كنا قد فهمنا لكنا قد سددنا لليابان قروضها الميسرة واستمر تعاملنا الاقتصاى معها.. فقد خسرنا أكثر مما كسبنا.

ولم تفهم اليابان أيضا: لماذا كنا نصر على بناء دار للأوبرا فى مصر.. وقد سألوا:

هل نحن نحب الأوبرا؟

وكانت الإجابة:

ـ لا.

وهل في مصر من يؤلف الأوبرا أو يلحنها أو يغنيها؟

ـ لا.

هل في نية الحكومة المصرية أن يتعلم المصريون فنون الأوبرا؟

ـ لا.

إذن لماذا تصرون على وجود دار للأوبرا؟

ـ لأنه كان عندنا أوبرا؟

ـ إذا كانت اليابان ليس فيها داراً أوبرا.. فكيف نبني لكم دار أوبرا في مصر وبالمجان؟

وهكذا بنت اليابان مركزا للتعليم والثقافة وهو مانصر على تسميته بدار الأوبرا!

وقد كان هذا المركز الثقافي جسرا بين طوكيو والقاهرة لتعبر عليه الثقافة من الشرق الأقصى إلى الشرق الأدنى.. لكن الذي حدث هو أن هذا الجسر اتجه إلى الغرب.. إلى الباليه والأوبرا والأوركسترا السيمفوني.. لقد دفعت اليابان واستفادت أوروبا والولايات المتحدة!

إن اليابان سعت منذ فترات سابقة فى إلغاء «التباعد» ليحل محله «التعارف» وكانت ترى أن العلاقات التجارية وحدها لاتكفى.. لابد من العلاقات الثقافية أيضا.

وقد كان أول كتاب صدر فى اليابان عنا وعن ثقافتنا هو كتاب «حياة محمد» كتبه تاداسو هاياشى ونشر عام ١٨٧٩ وفى عام ١٩٠٠ كتب كينيشتى ساكاموتو كتابا آخر فى نفس الموضوع وبعد خمس سنوات فقط ظهر كتاب آخر بعنوان «محمد ـ البطل الغامض» كتبه كايتن نوكاريا.. وحسب تفسير د. نصر أبو زيد فى كتابه المترجم «البوشيدو» فإن الاهتمام بحياة سيدنا محمد بشكل خاص يمكن تفسيره على أساس تأثير عقيدة الشنتو إن الثقافة اليابانية خاصة مايرتبط منها بعبادة الأسلاف.. ويرى البعض أن هذا الاهتمام سببه تأثير الثقافة الصينية.. فأول مسلم يابانى يسافر إلى مكة لأداء فريضة الحج وهو تنشو إياى قام بترجمة كتاب عن «حياة محمد» عن اللغة الصينية عام ١٩٢٢ وإن كانت الترجمة لم تنشر إلا فى عام ١٩٤١ .. وكان الكتاب الصينى الأصل الذى كتبه ريو كايرن عام ١٨٢١ قد اعتبرته الحكومة فى ذلك الوقت إلحادا وهرطقة وأمرت بإحراقه عام ١٨٤٣ .

ويستطرد د. نصر أبو زيد:

ـــ وكانت الخطوة التالية فى تعميق التعرف على الثقافة العربية هى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية. وقد قدم أول ترجمة كينيشتى ساكاموتو والذى سبق أن كتب عن حياة محمد وذلك فى عام ١٩٢٠ وقد

كانت الترجمة اليابانية للقرآن عن ترجمات إنجليزية وذلك لصعوبة اللغة العربية التى لم يأت اليابانيون لتعلمها فى مصر إلا بعد ١٩٢٦ وهو العام الذى افتتحت فيه القنصلية اليابانية فى الاسكندرية.. وفى نفس الوقت تقريبا بدأ تعليم اللغة العربية فى اليابان بشكل منتظم فى كلية أوزاكا للغات الأجنبية وهى جامعة أوزاكا الآن.

وكانت أول ترجمة للقرآن من مصدرها الأصلى فى الخمسينيات وقد قام بها توشيكو ايزوتسو.

وفى طوكيو أمسكت بيدى نسخة باليابانية من أحاديث مسلم، ونسخة من ألف ليلة وليلة، ورحلات ابن بطوطة.. وروايات نجيب محفوظ.. إن أكثر من نصف قرن من الاهتمام بالثقافة العربية قدم الكثير.. بينما نحن لم نهتم باليابان إلا فى السبعينيات.. بعد انتشار التليفزيون والفيديو والكاسيت.. فهذا مانعرفه عن اليابان.. وهذا مايريد الغرب أن نعرفه عن اليابان أيضا.. لتظل له الهيمنة الثقافية والحضارية علينا.

لقد سجلت هذه الملاحظات وأنا فى الطائرة التى راحت ترتفع أكثر.. وأكثر.. وأرتفع معها بأفكارى وتأملاتى أكثر وأكثر.. إنها تجربة جديدة أن أفكر على ارتفاع ٣٠ ألف قدم.. فى هذا الارتفاع أرى الدنيا بشكل مختلف وأتحرر من غبار الواقع وجاذبية الأرض وقوانينها..وتصبح الأفكار كرة من القطن معدومة الوزن.

ولكننى عندما هبطت على الأرض وجدت أن أفكار السحاب تستحق التنفيذ وأنها ليست مجرد تخاريف مسافر ■



امرأة الخروج من الجنة!

لا أعرض للحب في اليابان.

لا نظرات.. لا همسات.. لا قبلات

الحب في باريس فعل فاضح في الطريق العام.. وفي لندن يشعر بالبرد فيدخل العاشق تحت جلد الآخر..

وفي نيويورك يرقص المكارينا في الشارع على موسيقى الأنفاس الساخنة اللاهثة.. وفي القاهرة يضغط على الأعصاب المشدودة في الأتوبيس.. أما في طوكيو فهو أخرس، أبكم، مهذب، خجول، مصاب بالفصام، وما إن يترك الطريق العام ويختلي بالشيطان حتى يصبح مثل لاعب أكروبات في سيرك مثير.

إننى أستطيع أن أحكم على أى مجتمع من ذوقه فى الطهى.. ونظرته إلى المرأة.. أطباق الطعام التى نأكلها تلخص ما استوعبناه من حضارات وغزوات وعادات وعلاقات.. أما نظرتنا للحياة.. ولا تصدق رجلاً يحدثك عن التغيير ويتشدق بحرية التعبير وهو يتعامل مع المرأة كجارية أو كذبيحة.. ويتحدث عن الحب فى اتجاه واحد ولا يعطى للمرأة الحق فى اختيار الاتجاه الآخر.

وقد تغير ذوق اليابانيين فى الطعام.. لم يعد مطبخهم ديكتاتوريا ينفرد بطبق واحد هو الأرز والسمك.. أصبح مطبخهم ليبرالياً، ديمقراطياً يسع كل الأطباق من كل الجنسيات.. ولم تعد المرأة بالنسبة للرجل «شوال أرز» يأكل منه ما يشاء ويصنع منه الساكى أو المشروب الوطنى كما يشاء، وينام عليه، أو يتغطى به كما يشاء.. أصبحت المرأة قادرة على الرفض وقادرة على رسم صورتها وتحديد ملامحها وإن كانت لاتزال تبدو فى كثير من الأحيان مثل العصفور الخائف.. لاتزال بحزنها تتعطر .. ولا تزال تختفى فى خجل خلف ستار من الابتسامة المتكلفة مثل ابتسامة مضيفة الطيران.. أو مضيفة المطعم.. فصوتها عورة.. وضحكتها عورة .. ولو ابتسمت وضعت يدها على فمها.. فأسنانها عورة..

ومعظم الرجال يفضلونها يابانية.. معظمهم يحلمون بها.. إنهم يتصورونها رقيقة مثل الفراشة.. مطيعة مثل الخاتم فى الإصبع.. زاهدة مثل الراهبات.. صامتة مثل القمر.. لا تكف عن الانحناء والسجود.. تعبد الرجل وتضىء الشموع فى فراشة وتقدم له القرابين والنذور حتى يرضى .. إنها الجنة.

وصدقوني لو قلت أنني لا أفضل المرأة من هذا الطراز.. إنها امرأة تحول الرجل إلى ببغاء أنانى متغطرس، وتفجر عقده ونرجسيته، وتجعله مثل شهريار أشهر بلطجى خلده التاريخ.. إن الدوار جزء من العشق.. والمرأة التى تقدم نفسها كجارية تجعل الرجل يمارس الحب بعقلية رئيس العصابة.. ثم إن المرأة هى جسر الحوار بيننا وبين الحياة.. هى التى تمنحنا الدهشة والحماسة وتجعلنا نغير أصواتنا وكلماتنا وعاداتنا .. وهو ما لا يحدث مع المرأة ـ المخدة .. أو المرأة ـ البيتزا التى تضع عليها أى شئ ولا تعترض.

وصدقونى لو قلت أن المرأة اليابانية مؤدبة ومطيعة ولكن زوجها يعمل لها ألف حساب، إنها المسيطرة فى بيتها.: حتى ولو كانت ضعيفة خارج بيتها.. إن الزوج يقدم لها كل ما يكسبه ثم يأخذ منها مصروفة مثله مثل الأولاد.. ويجب عليه ألا يقصر فى واجباته العائلية قبل أن ينظر إلى الخارج ويتمتع بحياة اجتماعية وجنسية أرحب.

ولكن يندر أن تشارك الزوجة زوجها فى حياته الاجتماعية أو تسهر معه فى أماكن اللهو التى ينفرد بها الرجال وتشاركهم نوعية من النساء محترفة ومدربة على الرقص والغناء والأحاديث الشيقة المثيرة.. إنها ليست فتاة الجيشا، وإنما فتاة البار التى تحظى فى علاقتها بالرجل اليابانى بحياة أكثر ثراءاً واستقراراً من الزوجة نفسها.

إن الرجل اليابانى الذى تراه مهذباً صبوراً طوال اليوم يخرج من جلده وينفجر لسانه فى البار.. فيشرب حتى يسكر.. ويتكلم بلا توقف.. ويرقص دون قيود.. ويغنى ولو كان صوته خشناً مثل صرير الأبواب الصدئة.. إنه يخرج كل الشحنات المكبوتة ليعود ويحبسها فى اليوم التالى.. ومنظر معتاد

أن يتطوح الرجال أو يتكوموا من الثمالة بعد منتصف الليل.. ولا أحد يسخر منهم.. والتاكسى الذى يوصلهم لا يسرقهم ولا يغالط فى البنديرة.

وفى البار يجد الرجل من يتبادل معه المشاعر والبذاءات.. إنه لا يجد ذلك عند زوجته المطيعة، المؤدبة.. يجده عند فتاة البار.. الزوجة لتربية الأولاد وفتاة البار للمسخرة.. يندر أن توجد امرأة هى كل النساء فى واحدة.. لذلك فالكل يعانى من الفصام والتمزق.. إنه نفس موديل «سى السيد» فى ثلاثية نجيب محفوظ الذى يرتعش البيت من شخصيته، ويرتعش هو فى أحضان الغانيات من شهوته..

دخلت مطعماً وباراً متميزاً فى طوكيو.. قررت أن أعرف حقيقة فتاة البار.. ضرة الزوجة اليابانية وخصمها اللدود.. الخفى.

خلعت الحذاء الذى حرصت على أن يكون واسعاً.. إن الحذاء يجب أن يكون سهل الاستعمال حتى لا تتعرض لمشكلة.. فأنت تخلعه كثيراً قبل دخول معظم الأماكن.. وإلا اتهموك بقلة التربية وكثرة الجليطة.. وهذا هو السبب فى أن أحذيتهم واسعة.. وهم لا يستعملون البوت.. ولا تستعمل النساء الأحذية المعقده التى يصعب خلعها ووضعها فى القدم، خاصة إذا كانت المرأة ممتلئة على الطريقة المصرية.. وتصور امرأة مربربة.. ملظلظة، مثل شجرة الجميز، تخلع حذاءها فى مكان ضيق منخفض مصنوع من الورق المقوى والخشب الرفيع.. ستصاب على الأقل بانزلاق واندلاق.. وستعرف لماذا تكثر الزلازل فى اليابان..

فى المطعم الضوء خافت.. والمقاعد تقترب من الأرض .. وموسيقى البيانو تصاحب مغنيا شابا يقول لحبيبته «إنه لا شئ يملأ عينيه سواها.. لا

الأضواء ولا الزينات ولا أجراس الميلاد.. هى فقط التى يراها.. فهو لا يتذكر إلا صوتها ولا يتذكر إلا وجهها، أنت شبقى وأنت شغفى وأنت شبعى!..

وما إن جلسنا حتى جاءت فتيات بعدد الرجال على المنضدة.. إنهن فتيات البار.. الواحدة منهن تحت العشرين بقليل أو فوق العشرين بقليل.. واحدة تكشف صدرها وأخرى ترتدى بنطلونا من الحرير تحت الجلد وثالثة نحيفة إلى حد الجوع، ورابعة ممتلئة إلى حد التخمة.. وكلهن للترفيه والتسلية.. الفتاة التى كانت إلى جوارى كان كل مهمتها أن تشعل سيجارتى وتمسح يدى أو فمى.. لا أكثر.. وهى فى ورطة فهى تريد أن تسلينى لكنها لا تعرف كيف.. لعنة الله على اللغة.. أما لغة اللمس فممنوعة.. ولغة العيون يصعب التقاطها فى هذا الظلام.. كما أنه لو لعب الشيطان بالرأس اختفت الفتاة من جانبك.. وجاءت فتاة غيرها.. لتبدأ من جديد.. وعند الخط الأحمر تتغير بفتاة ثالثة ورابعة إلى أن تيأس وتضع عقلك فى رأسك وتمسك نفسك وأعصابك.. وفتاة البار لا تشرب الخمر غالباً تشرب شاياً بارداً معبأ فى زجاجة مثل زجاجات الخمر لتوحى بالمشاركة وإن كانت تدخن وتهمس وتكشف جزءاً من صدرها.. ويمكن أن تكون طالبة فى الجامعة، تجمع ـ من إسعاد الزبائن ـ مصاريف الدراسة الباهظة.. ويمكن أن تعمل لتأكل وتلبس وتعيش فوق سطح الحياة.. ويمكن أن تعمل وتكسب لتصبح صاحبة بار.. مثل صاحبة المكان الذى كنا فيه.. إنها تعترف بأنها عاشت سنوات طويلة من عمرها فتاة بار.. ثم عرفت رجلاً ثرياً كانت له وحده.. اشترى لها المكان.. وهى أكثر حرية.. فستان من الحرير .. مينى جوب.. وصدر مكشوف .. ومع مقاعد تقترب من الأرض ستجد أن حركة جسدها رطبة ومتحررة.. وتؤدى إلى الجحيم.

وقد وجدت أن من المناسب أن أغنى مثلما يفعل غيرى.. فلا أحد يعترض.. ولا أحد ينزعج.. وجهاز كاريوكا فيه موسيقى لأغان تناسب الجميع.. ولأن لا أحد فى اليابان سيدافع عن عبدالحليم حافظ فقد غنيت أهواك واتمنى لو أنساك... وأتصور أنك تتمنى أن تنسانى بسبب ما فعلت وأن تنشق الأرض وتبلعنى.

لكنه المكان الوحيد فى اليابان الذى يشعر فيه الرجال بكامل حريتهم.. لا ضوابط .. لا قيود.. لا بروتوكول. .لا انحناء.. لا أدب.. والكل يسعده أن يتحرر مما كان فيه طوال اليوم.. وأولهم فتاة البار التى تبدأ بأن تكون صديقة ويمكن أن تنتهى عشيقة.

ويبدو أن نموذج فتاة البار هو النموذج الذى يتصوره الغرباء للمرأة اليابانية وهذا غير صحيح.. إن المرأة اليابانية تكره فتاة البار وكثيراً ما تطلب الطلاق بسببها.. أو تشترط على من ستتزوجه ألا يذهب إلى البار .. والرجل يقبل كل الشروط وينفذها إلا هذا الشرط.. يقبل أن ينظف البيت ويحمل الأطفال ويأخذ مصروفاً.. لكنه لا يقبل ألا يذهب إلى البار.. إنه العيادة النفسية التى لا يستغنى عنها.. ولو كف عن البار فإنه سيلعب القمار .. لابد من بعض التوتر لكسر التزمت..

وهذا هو السر فى أن نسبة كبيرة من الفتيات يرفضن الزواج أو يترددن فى قبوله.. فالمرأة أقل حرية بعد الزواج.. كما أنها لا ترى زوجها كثيراً.. فساعات العمل وساعات المواصلات وساعات البار تجعل الحياة بينهما ،عابرة.. كما أن ضيق البيوت وتدليل الأطفال يجعلان الخصوصية بينهما نادرة.. وتشعر المرأة أنها ليست فى حاجة إلى هذا الزواج.. فهى

تعمل وتكسب وتعيش بمفردها ولا تحاسب على علاقاتها أو سوابقها الجنسية.. كما أنها لو تزوجته فإنها مهددة بترك عملها.. أو عليها الجمع بين وظيفتين.. في الشركة وفي الأسرة.. وهو ما يجعل معظم الشركات لا تنفق الأموال على تدريب النساء، وتميل هذه الشركات إلى أن يقتصر عمل المرأة.. حتى ولو كانت متخرجة في الجامعة.. على أعمال الاستقبال والسكرتارية وتقديم المشروبات لزملائها الرجال..

ورغم الحد الأدنى لسن الزواج حسب القانون هو ١٦ سنة للبنت و ١٨ سنة للشاب، فإن متوسط سن الزواج ارتفع ليصل إلى ٢٥ سنة للإناث و ٢٨ سنة للذكور..

ولا يزال اليابانيون يفرقون بين الحب والزواج ولا تزال معظم الزيجات تتم من خلال «ناكودا» أو الخاطبة أو الوسيطة.. إنها توفق الرؤوس في الحلال بعرض الصور والبيانات تمهيداً للقاءات التعارف في الأماكن العامة.. إن النسبة الكبرى من حالات الزواج تتم بهذه الوسيلة التقليدية التي انقرضت من مجتمعنا.. وهو أمر يثير الدهشة في مجتمع أزيلت فيه الحواجز بين الجنسين..

ونسبة بسيطة من الزيجات تتم في أماكن العمل ويندر أن يكون التعارف صدفة في الشارع أو المترو.. فالتقاليد العائلية في الزواج لا تزال صارمة.. وإن انتشرت مؤخراً مراكز الزواج بالكومبيوتر.. حيث تقوم هذه المراكز بتخزين المعلومات عن طالبي وطالبات الزواج. ويقوم المأذون الإلكتروني بالتوفيق وتدبير فرص الزواج وأماكن شهر العسل.

والزواج يكون فى المعبد وتبدأ طقوسه بتناول كأس من الساكى المشروب الوطنى المخمر من الأرز يباركه الراهب فى حضور عدد قليل من أفراد الأسرتين، ثم.يقام الفرح فى إحدى قاعات الفنادق أو فى إحدى قاعات المعابد.. وقاعات المعابد أغلى.. ولا يزيد الفرح فيها على ساعتين..

وقد حضرت عقد قران فى معبد من معابد الشنتو.. العروس كانت ترتدى الكيمونو.. ثم خلعته بعد عقد القران وارتدت الفستان الأبيض.. أما العريس فكان يرتدى اللباس اليابانى التقليدى، وقد دخلا المعبد وركعا أمام الراهب ثم أخذا يشربان الساكى الذى يقدم قربانا لآلهة الزواج.. راحا يرتشفانه قليلاً.. قليلاً.. ثلاث مرات.. فرقم ثلاثة يجلب الحظ.. ومحبب للآلهة.. التى تستجيب لمن يقوم بالدعاء ثلاث مرات.

وفى أهم مكان فى القاعة تجلس الخاطبة وزوجها .. وفى هذه الليلة يحرص الجميع ألا ينطقوا كلمة «سايونارا» أى وداعاً.. فهى تعنى الفراق.. وسوء الحظ أو النحس.

وقد كان الطلاق سهلاً.. كلمة من الرجل.. وتخرج المرأة من حياته .. لكن بعد دستور ١٩٤٧ الذى وضعه المحتل الأمريكى أصبح الطلاق فى المحكمة بحضور الزوجين.. وليس للمرأة حتى الآن إلا قليل من الحقوق المادية لا تزيد على ١٠ ٪ فى أفضل الأحوال ولا تصل إلى ٥٠ ٪ مما يمتلكه الزوج كما فى القوانين الغربية.. وما تحصل عليه الزوجة اليابانية ليس لها وإنما لأولادها، فإن لم تنجب خرجت من مولد الزواج بلا حمص.

ويفرض دستور ١٩٤٧ المساواة بين الرجل والمرأة ولكن الواقع الاجتماعى والثقافى يفرض التمييز بين الجنسين ويفرض على المرأة الطاعة العمياء منذ صرخة الميلاد حتى شهقة الموت، طبقاً لمقولة كونفو شيوس العتيقة «على المرأة أن تطيع أباها فى صباها، وتطيع زوجها فى شبابها، وتطيع ابنها فى شيخوختها» أى أنها يجب أن تطيع رجلاً فى كل مرحلة من مراحل عمرها وحياتها.. إنها الفلسفة الكونفوشية التى تقوم على السلطة الأبوية وسيادة وقوة الذكر وضعف واستسلام الأنثى وقصر دورها على الإنجاب ورعاية الأسرة .. ولأن الكونفوشية تميل إلى التطهر الصارم فقد ساد الاعتقاد أن الرومانسية ضعف والتعبير عن الحب والمشاعر خطيئة، والجنس مجرد وسيلة للحفاظ على استمرارية العائلة.

ولعل هذا هو السبب فى أن اليابانيين لا يعبرون عما فى أعماقهم من مشاعر، ويكتمون أحاسيسهم ويتجنبون البوح بالحب بأى لغة من لغاته.. النظرات الهمسات .. اللمسات.. ويكتفون بالصمت الرهيب.

إن هذه الصرامة تخفى رقة فى المشاعر تنفجر أحياناً بالبكاء.. البكاء من شدة الكتمان، قد يكون وسيلتهم فى التعبير حتى فى المناسبات السعيدة.. الفرح.. والنجاح.. وربما الحب والجنس أيضا.. وهو ما كانت تفعله بطلة رواية «الخروج من الجنة» التى وزعت ملايين من النسخ وتحولت إلى فيلم سينمائى ضاعف من شهرة الرواية .. إن البطلة الصغيرة تحب رجلاً يكبرها كثيراً.. وهى تبكى إذا قال لها: أحبك.. وتبكى إذا قبلها.. وتبكى إذا احتضنها.. وتبكى إذا أحست بالنشوة.. وهى مستسلمة لهذا الحب بمشاعر تختلط فيها الغيرة على الرجل الناجح المعروف الى تحبه والغيرة منه.. إنها

تريد أن تعيش حياتها وسنها وعالمها وتريد أن تنجح وتحقق نفسها مثله.. لذلك فهى تحبه وتتمنى الخلاص منه.. لا تريده ولا تقدر على الاستغناء عنه..

إن الفتاة المثيرة جنسياً تشعر بالنرجسية وحب الذات وهى تعكس بهذا الشعور إحساساً بالدونية بسبب سيطرة الرجل المدرب، الشهير، عليها وعلى جسدها وهى لذلك تحلم بأن تتركه إلى عالم أقل قيمة تشعر فيه بالتفوق، لكنها لا تقدر على ذلك.

ومشكلة «الخروج من الجنة» مشكلة واضحة فى المجتمع اليابانى، حيث تجذب الثروة والشهرة الفتيات الصغيرات.. وهى مشكلة لا يتمتع بها سوى رجال الأعمال ورجال السياسة.. ولكن لا القانون يعاقب عليها ولا المجتمع يغضب منها.. فكل شئ بالتراضى ليس جريمة ولا فضيحة.. إن الرجل اليابانى الذى أقنع المرأة أن الجنس خطيئة فإنه لم يتردد فى ممارسته خارج البيت بحرية لا مثيل لها فى أى مجتمع آخر.. بما فى ذلك مجتمعات دول الشمال الأوروبية التى يبدو فيها الجنس مثل الماء والهواء.. فالحرية الزائدة فى هذه المجتمعات أصابت الناس بالملل والبرود.. ومن ثم فإنهم عادوا ينادون بالكبت والتحفظ.. لعل كل ممنوع يصبح مرغوباً.. وفى المجتمع اليابانى لا يعد تعدد العلاقات الجنسية مشكلة.. ولأن العلاقات لا تزال فى الخفاء وفيها إثارة المغامرات فلا يزال للجنس طعم الدهشة.. والمجتمع اليابانى يبيح العلاقات الجنسية بشرط ألا تكون تحت ضغط أو ابتزاز.. إن التزمت للمرأة والانفلات للرجل. والعقد النفسية من نصيب المجتمع.

على أنه لو كان الرجل يرى أن الرجولة هى الخشونة فإن المرأة ترى أن الأنوثة هى النعومة.. أو هى الأمومة.. إنها هى التى تقبل «مرمطة» الزوج

وتجاهله لها واستهتاره بها.. وأحمد الله أن نساء اليابان لن يقرأن ما أكتبه وإلا قامت القيامة.. وغضب الرجال .. ووقعت أزمة دبلوماسية بين القاهرة وطوكيو..

وتمتلئ الأفلام الجنسية بالعنف والسادية من الرجال والضعف والاستسلام من النساء .. يجب أن يشد الرجل المرأة من شعرها. ولا مانع أن يضربها ويؤلمها.. وهى لا تقاوم.. ولا ترفض.. مع أن الأجمل أن يكون الحب ناعماً.. ثم يندفع إلى قدره.. ولكن الشعب الذى يعرف كيف ينتحر.. لا يعرف كيف يعامل المرأة.

وتنتج اليابان ١٠٠ فيلم بورنو فى السنة. ويخرجها كبار الموهوبين فى عالم السينما. وتكسب هذه الأفلام كثيراً وتغطى خسائر المنتجين من الأفلام الروائية التى لا يزال معظمها يدور فى عصر الساموراى وعصر الإقطاع.. ويسهل على زبائن الفنادق الكبرى مشاهدة هذه الأفلام وهم فى حجراتهم.. ويمكنك الفرجة لمدة ١٥ ثانية مجاناً.. لكن لا أتصور أنك لن تكمل الفيلم، أو أنك زاهد فى الدنيا إلى حد التوقف عن المشاهدة عند الدقيقة الرابعة عشرة..

وقد سألت: هل تعرفون التحرش الجنسى؟

فقيل لى: طبعاً.. هذا يحدث كثيراً فى كل ثانية فى المكاتب لا أتوبيسات.

ـ والعقاب؟

ـ لا جريمة ولا عقاب ماد ام لا أحد يشكو.

ـ وهل هذا ينطبق أيضا على جرائم الآداب؟

ـ جرائم الآداب تقع فى الكباريهات لا فى البيوت أو الفنادق.. الشرطة لا تطارد رجلاً وامرأة التقيا بإرادتهما فى مكان بعيد عن العيون.. هذه حرية شخصية.

ـ ومشكلة غشاء البكارة؟

ـ وضح كلامك!

وفهمت الإجابة.. وفهمت أن الجنس ليس مشكلتهم.. بل العمل.. والتركيز ليس على الشهوة، وإنما على الثروة أو الشهرة.. الجنس فى بلادنا يأكل ويشرب ويركب معنا الأتوبيس ويقرأ معنا الصحيفة ويشاهد معنا الأفلام، ويجلس على القهوة، يدخن المعسل، ويسيطر على البرلمان والمنبروالتنظيمات المتطرفة.. لذلك فهو لا يترك لنا فرصة كى نعمل.. ولأن مصاريفه كثيرة.. طعام وحشيش وصور عارية ومنشطات فإننا نفترض أكثر مما نكسب.. وسنظل فقراء إلى الأبد.

والمشكلة النفسية المزمنة فى اليابان أن الطفل الذكر يرتبط ارتباطاً شديداً بأمه.. إنه يعتمد عليها ويظل تحت رعايتها فترة طويلة قد تتجاوز مرحلتى الطفولة والصبا.. وهى لا تكف عن حمله على ظهرها وإطعامه ومداعبته وملاعبته.. وهو ينام معها هى وزوجها حتى يكبر ولا يترك بمفرده كما يفعل الغربيون، وكما نفعل نحن.. فهل نحن أمام أوديب من نوع آخر.. لا يعشق أمه وإنما يرتبط بها ولن يقتل آباه وإنما سيأخذ منه حنان امرأته!!

«ومجمل القول: إن الطفل اليابانى يظل يعامل وكأنه مازال صغيراً رضيعاً حتى بعد أن يكبر ويدخل مرحلة الشباب الأولى ونتيجة هذا الأسلوب

التربوى وهى نتيجة لا تثير الدهشة يتنشأ الطفل على درجة من الاعتماد على الآخرين وخصوصاً الاعتماد على أمه» المصدر ـ أو دين رايشاور «اليابانيون» .. وهذا الاعتماد على الأم سرعان ما ينتقل إلى الزوجة التى تجد نفسها تعامل زوجها معاملة الابن الكبير.. ولعل هذه المعاملة تشعره بأنه لا يخونها وإنما يغضبها.. فقط!

وفى ظل هذا الوضع ينشأ الرجل اليابانى وهو طفل ثم شاب.. وقد اعتاد على العواطف الدافئة التى يتلقاها من الآخرين وهو ما يعبر عنه فى اليابان بكلمة أمامى amoe وهى مشتقة من كلمة amaevo ومعناها حلو أو لطيف المعشر .. أى أنه يبحث عن الآخرين للتزود بالحنان.. وهكذا يبدأ هذا الوضع باعتماد الطفل على أمه لإشباع حاجته الحسية والنفسية ثم ينمو ليظل فى حاجة إلى الاعتماد بالنسبة لاحتياجاته النفسية على الدفء الذى يحصل عليه من الجماعة التى يلقى فى اعتماده عليها القبول والاستحسان.. وينمو الطفل وهو يتوقع دائماً أن تسامحه أمه وتتفهم ظروفه.. وعندما يكبر ويتزوج يتوقع أن يجد نفس التسامح والتفهم من زوجته».. انظر المصدر السابق.

إن مشكلة التمييز بين الرجل والمرأة مشكلة تربية.. فالطفل الذى تدلله أمه يتوقع أن تدلله زوجته.. والطفل الذى لا تعاقبه أمه يتوقع أن تسامحه زوجته.. وهو لا يشعر بالخيانة.. فلا أحد يخون أمه.. وهو لا يشعر بالذنب لو بقيت بمفردها فى البيت.. فهذه مهمة الأم.. وأقصى ما يجب أن تفعله أن تؤنبه.. لكن ليس من المتوقع أن تحاسبه.

ولكن من جانب آخر.. يكون اعتماد الطفل على أمه يجعله يعتمد على الآخرين فيما بعد .. المدرسة.. الشركة.. الزوجة.. وهو ما يجعله جزءاً من الجماعة دائماً.. وعلاقة الارتباط أقوى من علاقة الحب.. لذلك فالزواج يمكن أن يتم ويستمر بدون حب.. فالأهم من الحب الأسرة «الجماعة» والأهم من الزوج .. الابن.. لتستمر الدورة نفسها.

وقد لفت نظرى أن الأم تجبر طفلها على تحية الغرباء بالضغط على رأسه قليلاً.. إنه الدرس الأول فى الطاعة والاحترام.. والبروتوكول أيضاً. .فالتحية فى اليابان كما هو معروف بالانحناءة: أو سايكيرى saikeirei وهى أولى الأنواع.. وفيها يكون الانحناء ببطء ولأسفل حتى تقترب الجبهة من الركبة.. وهى التحية الرسمية المخصصة للإمبراطور.. زمان.. وقد تغيرت الآن للتحية المعتادة، وهى أقل مع ضم الكفين.

والسلام باليد لا يناسب اليابانيين.. والقبلات والأحضان والطرقعة باليد على ظهر الآخرين رذيلة.. أو فضيحة.. ولا قبعات يرفعونها.. والصغير ينحنى للكبير والفقير للغنى والشعب كله للإمبراطور.

إن التمييز لا يقتصر على الرجل والمرأة وإنما يمتد إلى كل شئ، فنحن أمام مجتمع طبقى جداً تحت السطح حتى ولو ابتسم وبدا متواضعاً.. فالجزء الخفى من جبل الجليد أكبر من الجزء الطافى ■

٩

معسكرات الدعارة العسكرية المنظمة

عندما نتكلم فإننا نتعرى.. نخلع ملابسنا ومتاعبنا.. نصير أحراراً مثل طيور خرافية لا وزن لها ولا وجود.

في بكين.. عاصمة بوذا والأرز والحرير والسور العظيم.. حيث عُقد مؤتمر المرأة العالمي.. كانت أندونيسية عجوز تقف في قلب مسرح قاعة كبرى تروى تجربتها السوداء مع جنود الاحتلال اليابانيين في الحرب العالمية الثانية.. وكانت خلاصة نساء العالم أمامها يتابعن روايتها، وقد

حبسن أنفاسهن، وتمزقت قلوبهن واستنفرت ضمائرهن.

قالت المرأة القادمة من زمن القسوة: لا شيء يموت.. لا شئ يضيع فى البحر.. إن الملامح ضاعت مع الزمن.. لكن.. بقيت الذاكرة مثل نصل حاد فى رقبة اليابانيين.. بقيت عقدة ذنب جنسية.. سياسية.. جماعية فى رقبة العسكرية اليابانية.

لقد كان اليابانيون فى الحرب أشبه بالتتار.. لم يكفوا عن إثارة الغبار.. وألغوا الفوارق بين الليل والنهار.. كانوا يقتلون الأسرى.. فأخلاق الساموراى وحضارة الانتحار لم تتح لهم تخيل أن المقاتل يمكن أن يستسلم.. يجب أن يقاتل أو يموت.. وكانوا يضعون النساء فى معسكرات بعيدة عن عواصم الدول التى احتلوها.. الفليبين.. أندونسيا.. كوريا الجنوبية.

فى هذه المعسكرات فرضوا الجزية على النساء.. واقتحموا أجسادهن بالقبلات والبلدوزرات.. وطاردوهن بالاغتصاب والرصاص والكلاب البوليسية.

وفى أحد هذه المعسكرات عاشت الأندونيسية العجوز أسود أيام حياتها.. كانت فى عز شبابها عندما اغتصبوها.. وجلدوها.. حتى أنها توسلت إلى الأمطار أن تمطر فى بلاد أخرى.. وتوسلت إلى الشمس أن تدفئ بلاداً أخرى.. وتوسلت إلى الله أن يلغى الذكورة من الرجال وأن يجعلها مثل ورقة شجر جافة.

لقد كان اليابانيون مصابين بورم التفوق على جيرانهم.. وبورم التفوق على المرأة.. فحولوا الحرب إلى مذابح وفضائح.. حولوها إلى نزوات.. داهموا المرأة المحبوسة وراء الأسلاك الشائكة، والأشجار المتشابكة مثل ديك متوحش.. اختلط ريشه بريشها.. وصيحاته بصيحاتها.. وعندما جاء النزيف كان الدم والجرح والألم من نصيبها وحدها.

كانت شهادة الأندونيسية العجوز صرخة انفجرت بالرذاذ فى وجه اليابان بكل ما تحلم به من مساواة وديمقراطية ورخاء وحقوق للإنسان.. لقد طاردت الكلمات الموجعة اليابانيين فى واقعهم وفى منامهم.. خرجت لهم فى فناجين القهوة وتبغ السجائر وأطباق الطعام.. ومن ثم وجدتنى أبدأ حوارى مع السيدة ناكامورا رئيسة لجنة المرأة اليابانية عن موقف جماعات تحرير المرأة فى اليابان من هذه الفضيحة التاريخية.

قالت :

ـ نحن نطالب الحكومة اليابانية بالاعتذار الرسمى للدول المجاورة التى احتلها الجيش اليابانى فى الحرب العالمية الثانية، وانتهكت فيها النساء.. وطالبنا بالتعويض لمن تضرر.

مقر لجنة المرأة متواضع جداً.. عثرت عليه بصعوبة.. وهو ما يفسر عدم الاهتمام بهذا النوع من المنظمات.. وهذا وجه شبه واضح بيننا وبينهم.. فنحن أيضاً نتباهى بهذه المنظمات فقط.. إنها فاترينات تعرض بضاعة ليست للتداول.

تستطرد السيدة ناكامورا:

ـ إن ما فعله جنودنا فى الحرب ضد النساء هو انعكاس لتصور الرجل اليابانى فى ذلك الوقت للمرأة.. فقد كان يراها مخدة. من قش الأرز يسهل حرقها.. أو عجينة يسهل خبزها.. أو قطة يمكن ذبحها.. وهو مفهوم تغير كثيراً الآن.. ولا نقول إن المرأة اليابانية أصبحت حرة تماماً.. أو متساوية بالرجل تماماً.

السيدة ناكامورا ممتلئة، مريحة الملامح، تركت الجليد الأبيض يغطى رأسها، وأسعدها وأثار دهشتها أن تجد صحفياً عربياً يأتى إلى اليابان ويفكر فى حرية المرأة.. وقد أضافت:

ـ إن عمر المنظمات النسائية فى اليابان لا يزيد كثيراً على ٢٠ سنة، فقد تأسست فى عام ١٩٧٥م بمناسبة العام الدولى للمرأة الذى دعت إليه الأمم المتحدة.. وفى اليابان الآن ٥١ منظمة وحركة نسائية يجمعها اتحاد عام له ست لجان رئيسية تهتم بالتنمية والبيئة والأسرة والمرأة العاملة.. ونجح الاتحاد فى تأسيس «صندوق المرأة للسلام» وهو صندوق نقدى، غير حكومى، تدعمه الحكومة، قدمنا من خلاله التعويضات شبه المعقولة لبعض النساء اللاتى تضررن من الاحتلال اليابانى لبلادهن.. حوالى ١٠ نساء فى الفليبين حصلن على هذا التعويض الذى وصل فى بعض الأحيان إلى مليونيين من الين.. وفى كوريا الجنوبية حدث نفس الشىء.. ولكن هناك فى هذه البلاد من يرفض التعويض لأنه ليس من الحكومة مباشره، كما أنه ليس مصحوباً باعتذار رسمى.

لقد خطفت هؤلاء النساء فى معسكرات خاصة للترفيه عن الجنود.. أى أنها كانت معسكرات للدعارة المنظمة، الخاضعة للإشراف الطبى.. وكانت

الحجة هى أن اليابانيين شعب يحب النظافة ويخشى الأمراض، ومن ثم لم يكن مسموحاً لهم بممارسة الجنس خارج أسلاك هذه المعسكرات.. وكانت هناك حجة أخرى هى أن الجنود فى الحرب يقعون فى الحب هرباً من الفزع والفراغ.. فيعشق الواحد منهم أول امرأة يصادفها.. وهذا ليس حباً وإنما «هو العثور على محفظة فى الشارع بعد إفلاس».

ولأن هذا النوع من الحب يشتعل أكثر فى الحرب فقد كانت المرأة الواحدة تجبر على ممارسة الجنس ١٠ ـ ٢٥ مرة فى اليوم، وكانت تجبر على الإجهاض بين حمل وآخر.. وكثيراً ما كانت عمليات الإجهاض المتكررة تؤدى إلى الموت أو الجنون.. لكن هذا لم يكن يهم.

تكرر السيدة ناكامورا :

ـ السبب أن المرأة ـ سواء يابانية أو أندونيسية أو سنغالية ـ فى نظر الرجل اليابانى كانت معدومة الحقوق.. لم يكن لها حق الاعتراض.. ولا حق الميراث.. ولا حق العمل إلا بموافقة ولى الأمر.. الأب.. أو الزوج.. أو الأخ الكبير.

بعد الحرب .. وبعد الدستور الجديد اعترفوا بالمساواة بين الرجل والمرأة.. وهذا انقلاب.. ولكن ظلت الحقوق على الورق أكثر.. صحيح أن المرأة من حقها قانوناً أن تحصل على نصف ميراث الزوج بعد وفاته، ليحصل الأطفال على النصف الآخر، مقسم عليهم بالتساوى، لكن صحيح أيضاً أن المرأة كثيراً ما تتنازل عن ميراثها للأولاد لأن المجتمع لايزال يفضل ذلك.

وليس فى اليابان مساواة فى الأجور بين الجنسين، والسبب هو الاعتقاد الراسخ الذى لم يتغير بأن الرجل هو المسئول عن نفقات الأسرة.. بل إن

البعض لا يزال يعتقد أن مكان المرأة الوحيد هو البيت.. إن هذه القيود الذهنية هى التى تعوق المساواة.. فلا استقلال للمرأة بدون حقها فى العمل، بدون أن تكون قادرة على الكسب.

وقد اندفعت المرأة للعمل، وسهل عليها ذلك أن التطور التكنولوجى أنتج لها أدوات وأجهزة منزلية يسرت عليها «شغل البيت».. كما أن البحث عن مستوى معيشة أفضل جعل دخلها من العمل جزءاً ضرورياً من ميزانية الأسرة.. كذلك فإن التكنولوجيا الحديثة جعلت العمل أسهل.. وليس فى حاجة إلى القوة الجسمانية.

ولكن.. رغم أن نصف القوى العاملة نساء فإن المناصب القيادية أغلبها للرجال.. إنه النظام التقليدى للسلطة الأبوية فى البيوت والشركات، حيث رب الأسرة ورب العمل يجب أن يكون رجلاً!

وقد وقعت اليابان فى عام ١٩٧٩م معاهدة عدم التمييز بين الرجل والمرأة.. لكن هذه المعاهدة لم تصبح قانوناً وافق عليه البرلمان إلا فى يونيو ١٩٩٧م أى بعد حوالى ١٨ سنة من الاعتراض والمقاومة.

وحسب هذا القانون لم تعد هناك أية قيود على عمل المرأة.. بما فى ذلك حقها فى العمل بعد منتصف الليل.. لقد سقطت أوهام تعرض المرأة للخطر بعد منتصف الليل وهى عائدة من العمل.. لأن هذا الخطر ـ لو كان قائماً ـ فإن المرأة تتعرض له وهى عائدة من السهر أيضاً.. وكانت هناك حجة أخرى هى أن المرأة فى وردية الليل أسهل سقوطاً فى الحب.. وهذا من أكبر الأخطاء الشائعة.. فالمرأة تبقى محتفظة بتوازنها وأعصابها حتى فى أعنف ساعات الهوى.. أما الرجل فهو يدخل فى مرحلة الغليان والبركان

منذ اللحظة الأولى واللمسة الأولى.. حتى عندما تذهب المرأة مع الرجل إلى آخر الشوط، فإنها تفعل ذلك وهى واعية ومدركة تماماً لما تقدم عليه.. إنها لا تفاجأ بشىء، فعقلها وجسدها فى حالة توقع.. وفى داخلها كمبيوتر يحسب بسرعة مذهلة كل الاحتمالات.. ابتداء من كلمة «أحبك» التى تقولها للرجل، إلى أسماء الأطفال الذين ستنجبهم.. وعندما تشعر بأن خطتها» لن تفلح.. تغير البرنامج.. أو تغير الرجل.

المثير للدهشة أن بعض المنظمات النسائية وبعض الأحزاب السياسية (مثل الحزب الشيوعى) رفضت أن تعمل المرأة بعد منتصف الليل.. لكن.. السيدة ناكامورا ولجنة المرأة التى ترأسها مع المساواة الكاملة فى عمل المرأة مهما كانت الظروف والأخطار.. فالعمل أصل المساواة.. وقبول المرأة شروطاً خاصة فى العمل معناه أنها هى التى تقبل التمييز.. ليس ممكناً فى قضية المساواة أن تمشى الخيول فى اتجاه وتمشى العربة فى اتجاه آخر.

ضحكت فى سرى وأنا أتأمل ما أسمعه.. ففى مصر نجد أن المرأة تتعامل مع قضية المساواة كما تتعامل مع فستان قديم، أو كما تتعامل مع ضريح، أو كما تسكن فى بيت غير مريح.. فهى التى تطالب بعدم المساواة.. تفصل بين التعليم والعمل.. بين الجامعة والوظيفة.. تتخرج محامية أو طبيبة أو مهندسة لتصنع العجة والمسقعة.. تحصل على شهادة جامعية لا لترد الدين للمجتمع، ولا لتضيف إليه وإلى نفسها، ولا لتمزق كل الفرمانات القديمة، وإنما لتصبح جارية مثل جدتها.. إن التركيبة النفسية للجارية لا علاقة لها بالسيارة والدش وثياب فرساتشى وإنما هى حالة تجد فيها المرأة جزءاً من غريزة القطيع، وقناعات القطيع.

هى الآن مستعدة للخرافة، ومستعدة للعودة إلى البيت، ومستعدة أن تكون زوجة ثانية.. والسبب أن المال لا الحب هو شرعية الزواج.. والسبب الأفكار الخاطئة التى تصور المرأة مخلوقاً شيطانياً مهمته الوحيدة فى الحياة الغواية، والفتنة والإثارة والإغراء. لذلك يجب تقييده بالختان والحجاب وجدران البيت الأربعة.

إن الجنس هو صداعنا الكبير فى بلادنا وهو المقياس الوحيد لكل أخلاقياتنا.. فنحن لا نهتز للرشوة.. ولا للكذب.. ولا للنفاق.. ولا للفساد.. ونقبل القهر.. والديكتاتورية.. والعنف.. لكن كل كياننا ينقلب عندما نجد امرأة ترتدى المينى جوب.. نشعر ساعتها أن كل الأخلاقيات انهارت وأن القيامة يجب أن تقوم.

وقد استسلمت المرأة المصرية لفكرة أنها وليمة أو طبق فتة فتنازلت بنفسها عن حقوقها وهى حقوق حصلت عليها بدون مجهود أو معاناة.. حصلت عليها بقرارات من الرجل.. لا امرأة واحدة سجنت من أجل حقوقها.. لا امرأة واحدة قتلت دفاعاً عن النساء.. ومن ثم لا امرأة واحدة قاومت عندما سحب منها الرجل حقوقها.. فما يأتى بسهولة، يذهب بسهولة.

وبدون الخروج عن الموضوع فإن هذا عموماً ما يأخذه اليابانيون علينا.. فكل تجاربنا هى تجارب سلطة لا تجارب شعب.. فوجئنا بالملكية.. وفوجئنا بالجمهورية.. وبالاشتراكية.. والرأسمالية.. والسوفييت.. والأمريكان.. كل شىء فى حياتنا لم نشارك فى صنعه.. فلم نبك على رحيله.. ولم نقرأ الفاتحة على قبره.

إن كل شىء فى حياتنا بقرار جمهورى من تحرير سيناء إلى تحرير المرأة.. ومن السلام الاجتماعى إلى السلام مع إسرائيل.. نحن مثل الزوج آخر من يعلم.. وأول من يدفع الثمن.

وفى اليابان وزارة للمرأة.. ونحن فى حاجة إلى مثل هذه الوزارة فى بلادنا.. ويمكن أن يكون وزيرها رجلاً.. لا مانع.. لا فرق.. المهم أن تخرج هذه الوزارة لتدعم وجود المرأة وتدافع عن استقلالها وتنقذها من الانتهاكات التى تتعرض لها فى المساجد والأتوبيسات والبيوت والمكاتب والشوارع.. إن المجتمع الذى يعامل المرأة على هذا النحو هو مجتمع فاسد، مغلق العقل، ينظر تحت قدميه، مصاب بعقد نفسية، وتشوهات خلقية، وتاريخية يصعب علاجها.

لقد ضاعفت وزارة المرأة فى اليابان من حقوق المرأة وساهمت ـ وهذا هو الأهم ـ فى تغيير صورتها فى ذهن الرجل، وفى ذهن المجتمع.. وهو ما جعل السيدة ناكامورا تقول:

ـ إننى أشعر بالتغيير الآن.. إن الجيل الجديد من النساء لا يأتى إلينا بمفرده.

ـ المرأة تحضر الآن ومعها زوجها أو صديقها.. لم يعد المجتمع منقسماً على نفسه.. جزء للرجال وجزء للنساء كما كان.. والرجل أصبح يدخل المطبخ أيضاً.. ويلعب مع الأولاد.. وهذا كان عاراً من قبل.

ثم فجأة سألتنى :

ـ هل تطبخ ؟

فقلت : أحياناً أضع الفول على البيض.

ـ وهل تنظف البيت ؟

ـ أرتب مكتبى!

ـ المساواة أن تعمل المرأة فى المصنع وأن يعمل الرجل فى المطبخ.. لأن من الظلم أن تعمل المرأة فى المكانين معاً.

ـ بعض النساء لا يحترمن الرجل الذى يدخل المطبخ.

ـ والبعض الآخر يرحب بذلك.

فكرة أخرى طرحتها ونفذتها السيدة ناكامورا هى أن تنظيمها النسائى قرر أن يمنح جائزة سنوية لأفضل «رجل» دافع عن المرأة.. ولأفضل رجل قدم فكرة لدعم المساواة.

ومن النصائح التى فاز أصحابها: أن يتعلم الطلاب الذكور الطهى والتدبير المنزلى فى المدارس.. حتى لا يشعروا بأن عمل المرأة فى البيت أقل مرتبة مما يفعله الرجل.. فكرة.

لكن .. الفكرة الأهم هى حل التناقض الكبير بين الأفكار المطروحة وتفاصيل الحياة اليومية!

قالت لى فتاة تدرس الصحافة فتحت حواراً معها مصادفة فى أحد المطاعم:

ـ نعم صدمت الأفكار الحديثة وفلسفاتها ومذاهبها جهازنا العصبى فشعرنا أننا أخف وزناً وأكثر قدرة على الدخول فى حوار حضارى مع

العالم، ولكن في الوقت نفسه لم تستطع هذه الأفكار أن تفتح لنا فى الداخل الضوء الأخضر لنعبر إلى الرصيف الآخر.. حيث الحرية فى انتظارنا.

هى حلوة، ناعمة، رقيقة، دقيقة.. لكنها أيضاً عنيفة.. وتتكلم لغة مختلفة متسعة بحجم انفعالاتها.. لغة فيها حب وشهوة وعصيان ووحشية، وفيها كذلك كل الأدوات التى يستعملها المساجين عادة لكسر أقفال زنزاناتهم.

قلت لها: أشعر بأنك لست فتاة يابانية.

قالت: الصور القديمة لم تتغير فى عقول الرجال عن المرأة اليابانية.

■ أتحدث عن لغتك لا عن ملامحك.

ـ إنها لغة تتسم بالتوتر والعصبية لأن وجودى فيه قهر وغياب وأشعر أنى مسروقة من ثقوب الأبواب.. الحرية بالنسبة لنا لا تزال فى السوق السوداء وفى بيوت محترفات الهوى.

■ كيف ؟

ـ نحن نحب فى ظل رعب التقاليد.. وعندما يختلس الإنسان الحب اختلاساً ينتفى الوجه الحضارى للحب وتنتفى أية صيغة إنسانية للحوار ويصبح الجنس رقصة همجية حول ذبيحة ميتة.

■ لكن الرجل اليابانى لا يحاسبك على الماضى مهما فعلت أو تعريت فيه.

ـ هو لا يحاسبنى على الماضى إنما يعتقل المستقبل.

■ هل أنت عضوة فى تنظيم نسائى ؟

ـ لا .

■ لماذا.

ـ لأن النساء في هذه التنظيمات يمارسن حواراً من طرف واحد.. ما يفعلنه أشبه بالسحاق الاجتماعي.

■ لكن ..

ـ أهم من كلمة لكن هو أن عقل الرجل يطغى عليه عنصر امتلاك جسد المرأة على أى عنصر ذهنى أو نفسى.. إن التجريد الذهنى محصول حضارى لا يصل إليه الإنسان إلا فى ظل العلاقات المطمئنة، وعلاقات الرجل بالجنس كانت علاقات عصبية لاهثة ومستعجلة.

■ لكن الحرية ليست انفلاتاً.

ـ الشعور بانعدام الوزن، شعور لذيذ ومريح بالنسبة لامرأة تحمل ميراثاً من الكبت والقهر والقسوة، لأن هذا الشعور يتيح لها أن تكشف أبعاد جسمها ونفسها ويعتقها من الضغوط الخارجية على أفكارها وأحلامها ومشاعرها.

إن هذا لا يتوافر فى المنظمات النسائية حيث اللغة الدبلوماسية تسود وهى لغة عائمة، تموت فى مكانها.. إنها لا تضىء شيئاً ولا تعنى شيئاً ولا تأخذ شيئاً ولا تعطى شيئاً.. إنها كالزهور البلاستيكية.. إلا أنها فاقعة ولكن لا رائحة لها.

هل مثل هذا الحوار الغاضب الذى سمعته فى طوكيو يمكن أن أسمعه فى القاهرة.. نعم.. ولكن فى الحجرات المغلقة.. فعلى الأبواب سكاكين ومدافع مستعدة لتمزيق أية امرأة تفكر فى النطق بكلمة الحرية ■



الصلاة على فنجان شاى أخضر!

تحت جلدنا يعوى ذئب أسود لا يتركنا ننام أو نفكر أو نمارس حياتنا بشكل طبيعى اسمه الشراهة.

نحن مستعدون للكذب من أجل قطعة بيتزا.. ومستعدون للنفاق من أجل سندويتش هامبورجر.. ومستعدون لقتل عشرين رجلا للوصول إلى شفاه امرأة.. ولم نعد نرى الحياة سوى سوبر ماركت.. تصورنا أننا نستهلك الحياة فإذا بها تستهلكنا.. لم تعد من سلالة أيوب عليه السلام..

وفقدنا ذلك المخزون الهائل من الصبر والتحمل الذى كان يرشحنا للانتظار والانتصار.

أصبح مستر كنتاكى أهم من نجيب محفوظ ويوسف شاهين وزعماء الأحزاب والنقابات مجتمعين.

أصبحت السيدة بيتزاهات الأم الأكثر أمومة لأطفالنا.

أصبنا بمرض «السريعة» فرحنا نأكل بسرعة، ونقود سياراتنا بسرعة، ونفض علاقاتنا بسرعة ثم.. لا نعرف ما سر هذه «السريعة» إذا كنا لا نتعلم كما يجب.. ولا نعمل كما يجب.. ولا نشارك فى الحياة العامة كما يجب.

لقد أخذنا من الحضارة الغربية «السرعة» دون أن نعرف فيم نستعملها ودون أن نعرف فلسفتها ولا مبررها.. فكنا كمن يركب سيارة مجنونة فى ملاه.. يصرخ وهو يركبها.. ويشعر بالإغماء عندما تتوقف.

إننا لم نأخذ من الحضارة الغربية سوى مشاعر عبوات الديناميت.. وعيدان الكبريت.. فكان أن أحرقنا أنفسنا بأنفسنا دون أن ندفىء الآخرين.. أو نضىء لهم.

ولعل هذا هو سر الأمراض النفسية والجرائم الشاذة التى نعانى منها.. ولعل هذا ما جعل الناس فى اليابان يحاولون التوفيق بين التكنولوجيا الغربية وفلسفتهم الروحية.. الآسيوية.

إن الروح يجب أن تهدأ وإلا حولت الجسد إلى جحيم.. والعقل يجب أن يستوعب أشياء أخرى غير الحواس وإلا تعرض للتمزق والاضطراب

وانتهى بصاحبه إلى مستشفى للأمراض العصبية.. إن أعظم انتصار فى الدنيا ليس انتصار الإسكندر الأكبر، ولا انتصار نابليون بونابرت، ولكنه انتصار الإنسان على نفسه إنه الجهاد الأكبر.. أو الجهاد الأعظم.. لكنه مثل أى جهاد أو أى قتال يحتاج إلى تدريب.. تدريب شاق.. تدريب صارم.

وتقوم الفلسفة الآسيوية على تكوين قوة داخلية خارقة فى نفس الإنسان تجعله صامتا، متأملا، مستسلما، دون أن يشعر بالحنين إلى العالم الخارجى.. عالم الزحام والصراع.. تجعله مصغيا إلى موسيقى الأعماق.. ومشاعر الأعماق.. ليعود إلى ذاته.. يفهمها.. يستوعبها.. يستردها.. يتفاهم معها.. فيسترد الصفاء.. ويعرف الشفاء.. وينسحب من عالم الضعفاء.. عالم الثروات والنزوات والشهوات والمخابرات.

حاول أن تجلس صامتا لا تكلم الناس مثل السيدة مريم لتعرف أنك أضعف من السكوت.. حاول أن تدخل فى أعماق نفسك لتعرف أن الطريق إلى نفسك أصعب من تسلق جبال الألب أو جبال الهيمالايا.. حاول أن تتسامح وتعطى خدك الأيسر لمن ضربك على خدك الأيمن لتعرف أنك مخلوق من نار لا من نور وأنك ستحترق بالغل والغيظ اللذين تتصور أنك ستحرق بهما الآخرين.

حاول أن تفهم ـ دون سخرية أو سربعة ـ لماذا يمارس اليابانيون كل هذه الطقوس المعقدة لشرب فنجان من الشاى الأخضر طعمه فى النهاية مثل الملوخية الخالية من الملح؟.. لا تقل لماذا كل هذا الصداع والأسهل وضع «باكو» الشاى المربوط بخيط رفيع فى كوب من الماء المغلى.. ودمتم.

إن طقوس شرب الشاى التى يطلق عليها اليابانيون Cha _ no_yu أو بالإنجليزية Tea Cer _emony هى طقوس أقرب للدروس التى يتعلم الجسد فيها طاعة الروح ليفقد تدريجيا إحساسه بالملل والنفور والضجر.. ويطلق لفظ الشاى هنا على الشاى الأخضر المسحوق ويسمى Matcha وطعمه ليس مثل طعم الشاى الإنجليزى الأحمر الذى يعد تناوله عصرا.. أو فى الساعة الخامسة من التقاليد الإنجليزية «المقدسة»المحسوب فيها كل شئ.. درجة حرارة الماء.. كمية الشاى..وقت اختلاط الشاى بالماء.. عدد ملاعق السكر.. كذلك فإن طعم الشاى اليابانى ليس كطعم الشاى الأسود الذى يغلى مع السكر معظم الوقت ونتناوله فى أكواب صغيرة.

والشاى على الطريقة اليابانية يرمز إلى حضارة روحية قديمة يسودها مذهب «زن» .. المذهب الصوفى للديانة البوذية والذى يهتم بالروح وصفائها فى لحظات من السكينة والتأمل والمتعة الروحية بعيدا عن الحياة المتوترة، الصاخبة، المنغلقة التى يعيشها الإنسان خارج «كشك الشاى».

إن كشك أو كوخ أو بيت الشاى هو مكان منعزل عن البيت، غالبا ما يقع فى حديقة بها أشجار وحولها مياه جارية.. وقد قررت أن أتدرب على شرب الشاى بالطريقة اليابانية.. فأحسست بنظرات الإشفاق .. ولا أقول نظرات السخرية.. فالأسهل أن تجمع مليون دولار، أو تصبح عبقريا فى الكومبيوتر، أو تحصل على بطولة العالم فى المصارعة.. فطقوس الشاى هنا معقدة جدا، وتحتاج إلى صبر، وتدريب، وعمر مديد.. وهذا هو الهدف منها.. التواضع والتأمل وكسر شوكة الغرور.. ومع ذلك لم أجد ما يمنع أن أتعلم الدرس الأول، خاصة أن معلمتى من أشهر معلمى هذا الفن فى

اليابان.. وهى السيدة سوباى ساكوراى، وقد ذهبت إلى مدرستها فى طوكيو التى تقع على بعد أمتار من معبد ياسوكونى الذى تجرى فيه مراسم الصلاة على أرواح شهداء وضحايا الحروب.. وبالقرب منه يقع المتحف الحربى يوشوكام.. ومدرسة الشاى هى بيت صغير.. أمامه حديقة صغيرة..وبالقرب من درجاته المعدودة شجرة صغيرة ينقط الماء من أوراقها.. لم أنتبه لذلك إلا عندما قالت لى السيدة ساكوراى: إن نقط الماء الأشبه بدموع أوراق الشجرة تعنى أن حفل الشاى لايزال مستمرا.. إن أصحاب الحفل «يدلقون» جردلا من المياه على أوراق الشجرة، وطالما ظلت الأوراق تنقط، فإنهم مستعدون لاستقبال الضيوف لشرب الشاى.

إنها ساعة مائية من نوع خاص.. فيها عناق بين الماء والأوراق فى جو تسيطر عليه الطبيعة.. لا ساعة رملية اخترعها الإنسان.. ولا ساعة رقمية تقفز أمام عينيك فى جنون وقبح.. ولا ساعة رولكس، ثمنها الغالى يغرى الناس بقطع يدك للحصول عليها.

باب الدخول منخفض حتى يضطر الداخل إلى الانحناء.. إن ذلك متعمد حتى تجبر على التواضع واحترام المكان من أول لحظة، وحتى تندمج فى هذا الجو المشبع بالهدوء والسكينة.. وبالطبع أنت تتوقع الآن أن تخلع حذاءك وأن تمشى وتجلس على حصير «التاتامى».. إن ذلك لمزيد من التواضع.. وكسر الغطرسة والعنجهية.

سألتنى المعلمة: من أين؟

ـ من مصر.

ـ مصر بلد السخرية!

وتعجبت من الملاحظة .. فأنا لم أتصور أن شهرتنا فى السخرية قد وصلت إلى اليابان.. وإلى مدرسة لتعليم الشاى.. كنت أتوقع كما هو معتاد أن ينسبوا مصر إلى الأهرام والجمال والتماسيح وأبى الهول.

القاعة متواضعة .. حوائطها من حواجز خشبية رقيقة تحيط بورق أبيض خفيف يسمح بنفاذ الضوء بعد تهذيبه.. وباب القاعة موارب.. ليس مغلقا.. ليس مفتوحا على آخره.. ويجب أن تجلس القرفصاء أمامه..وقد وضعت أمامك مروحة صغيرة.. تفتحه بهدوء.. ثم تبدأ بوضع المروحة على آخر ذراعيك ثم تضغط على يديك لتحمل جسمك بكل ثقله وأنت فى وضع الجلوس وكأنك تقرأ التشهد لتصل إلى مكان المروحة.. ثم تمد المروحة.. وتحرك جسمك.. حتى تصل إلى ركن يسمى توكونوما.. وهى لوحة معلقة على الحائط مرسومة عليها زهرة..أو حرف من حروف اللغة اليابانية.. وتحتها إناء من الزهور.. تضع المروحة أمام هذا الركن ثم تقوم بالتحية والانحناء .. ثم تتحرك بنفس الطريقة حتى تجلس فى مكانك.. ولا تتصور هذه الحركة سهلة.. إن جسمك الثقيل يشعرك بالإرهاق ويذكرك بأنك مشدود للأرض أكثر.. ولن تشعر بصفاء النفس ورشاقة الروح إلا إذا تخففت من ثقل الجسد.. إن هذا هو الهدف من وراء هذا التقليد المتبع منذ ٨٠٠ سنة عندما جاء الشاى من الصين.. وتعامل معه اليابانيون على هذا النحو.

جلست فى مكانى على نفس الوضع فأحسست بالتعب.. لقد تعودنا أن نعامل أجسادنا بالتدليل.. نجلس على الجانب المريح.. وننام على الجانب المريح.. ونتقلب ونتبدل فى القعود.. حتى فقدت أجسادنا الانضباط.. حتى

احسسنا بالتعب من مجرد الجلوس على وضع واحد لمدة نصف ساعة وربما أقل..خمس دقائق.. وقد أحسست بالخجل والمعلمة تطلب منى أن أجلس بحريتى.. فأنا ضيف.. جاء يتفرج لا ليتعلم.. وأنا قادم من مجتمع لا يضبط الجسد ولا يضبط النفس.. وسأعود إليه.. ومن ثم لا مبرر للتعذيب.. ولكن رفضت الاسترخاء.. وأصررت على اكتشاف الحكمة وتعلمها.. واعترفت بأننى بقدر ما أحسست بتعب الجسد أحسست بحلاوة ورشاقة الروح.

فى ركن آخر.. بخور يحترق.. وموقد من الفحم عليه الوعاء المخصص لغلى الماء إلى جواره منضدة صغيرة عليها وعاء الشاى الأخضر ووعاء لماء بارد.. وفرشاة للتنظيف.. وفرشاة من البامبو للتقليب.. ثم أوعية شرب الشاى وهى مثل الأوعية التى تشرب فيها الحساء.

تعد المضيفة إناء الشاى الأول ثم تقدمه زاحفة فى وضع الجلوس إلى الضيف الأول الذى يخرج فوطة من الورق جاء بها معه، ويضعها على كفه الأيسر ويضع فوقها إناء الشاى، ويحيى جاره بإيماءة من رأسه وهو يقول أوزاكى ـ نى ـ Osaki -ni أى أستاذنك فى تناول الشاى قبلك.. ويدير الإناء نصف دورة.. ويرتشف ثلاث رشفات ونصف.. ولا تسأل: لماذا ثلاث رشفات ونصف.. وبعدها يمسح الإناء لمن يليه الذى يشرب بعده بنفس الطقوس ويمكنك أن ترشف الشاى بصوت مرتفع .. فهذا ليس قلة أدب.

تقوم المضيفة بغسل الأناء بهدوء بالماء.. ثم يمرر الإناء على الضيوف ليتأمله الواحد بعد الآخر.. وخلال لحظات التأمل يدور الحوار حول الإناء وتاريخه.. وساعتها ستكتشف أن تاريخ اليابان يمكن أن يروى من خلال

أوانى الشاى.. وهناك متاحف لهذه الأوانى.. ومحلات خاصة لبيعها.. وأسعارها غالية.. فهناك وعاء يمكن أن يصل إلى مليون ين.. وربما أكثر.

وقد زرت متحفا للشاى أقامته عائلة كاتيشرو نيتسو، وهو رجل أعمال ثرى بدأ الاهتمام بطقوس الشاى بعد الخمسين، وكان أثناء ذلك فى الولايات المتحدة.. تأسس المتحف فى سنة ١٩٤٠ ويضم كل ما جمعه الرجل من تحف شرقية.. ويضم صورة لسنوريكومؤسس الطريقة اليابانية لتقديم الشاى وهو مولود فى سنة ١٥٢٢ ومات سنة ١٥٩١ منتحرا بأمر من الحاكم.. وفى هذا المتحف تجد تناقضا واضحا.. تماثيل لبوذا وتماثيل ولوحات لنساء عاريات.. منها تمثال لامرأة تضع رأسها بين ساقيها فى رشاقة واضحة وقد برزصدرها من تحت إبطها.

والمثير فى هذا المتحف أن وعاء الشاى الرجالى أكبر من وعاء الشاى النسائى.. فالتمييز واضح بين الجنسين حتى فى شرب الشاى.. كما أن وعاء الشاى للسادة له قاعدة خشبية لتمييزه عن وعاء الشاى للعامة.. فهذا مجتمع جذوره الإقطاعية جعلت التمييز الطبقى الاجتماعى أمرا طبيعيا.

وهناك مرحلة أخرى لشرب الشاى فى وعاء صغير من الخوف لكل ضيف مع أنواع من الحلوى والاستغراق فى التأمل.. وهو ما يجعلك تشعر وأنت خارج من الباب بأن ذهنك أكثر صفاءً.. وروحك أكثر انتشاءً.. وجسدك أخف وزنا.. ورؤيتك للعالم تخلت عن البغضاء والغضب والغليان..

جرب أن تفعل أبسط الأشياء وأثرها تفاهة باهتمام وهدوء .. حاول أن تكتشف الأسرار الصغيرة فيما يقع بين يديك.. سترتفع قيمتها.. ستزداد

متعتها.. سيتضاعف إيمانك بها.. وستشعر أنك أكثر استيعابا للحياة..للكون.. للإنسانية.. لا تتعامل مع ما حولك معاملة الحمقى الذين ينفعلون انفعالات سطحية.. وينبهرون بالنزوات الصبيانية.. ويهتمون بالتكوين الخارجى ويركزون على التقاطيع والألوان المبهرة والأضواء الساطعة.. فليس كل ما يبرق ذهبا.. وليس كل من يدعى الحكمة فيلسوفا.. وليس كلما هو جميل يستحق الاقتناء.

أمسك نفسك .. اضبط جسدك.. لا تتردد فى تربية ذاتك كل يوم.. تولى أنت هذه المهمة قبل أن تجبر عليها.. أجلس مع نفسك .. اسمع موسيقاها.. اسمعها هى.. تحاور معها.. لا تخاصمها.. لا تبتعد عنها بالصخب والزيف.. دربها على اليوجا.. على الصمت ولو لساعات .. على السكون.. تأمل الطبيعة .. القمر.. النجوم.. اخرج إلى الصحراء.. لاحظ أن قوتها فى سكوتها.. لا تقل أننا فى عصر السرعة.. وأن الوقت يساوى مالا.. فنحن قد وصلنا إلى عصر السرعة بهدوء.. والمال الذى تكسبه من بيع الوقت قد تنفقه فى أقراص تمنح الهدوء الكيميائى الكاذب.

إن نفس الإنسان هى كالسماء والليل والبحر لا تقبل التقسيم ولا التنازلات ولا المساومة وإلا كان مصيرنا الفصام.. والأفضل أن نعرف الفطام.. أى نتدرب على ترك الأشياء التى ندمنها.. من لبن الأم إلى ملامح المرأة التى نعشقها.. ومن سطوة المال إلى جنون الشهرة.. ومن شهوة الطعام إلى غطرسة السلطة.. إن الحرية هى حرية الإنسان فى الخروج مما يدمنه.. حريته فى الفطام.

لقد سرحت بعيدا.. لكن هذه هى مشاعرى التى أحسست بها بعد أن خرجت من درس الشاى.. وهى مشاعر كانت أرق من دمعة طفل.. ولهفة عاشق .. وانفعالات شاعر.. وصوفية راهب يعرف قلبه كيف يسع الكون كله.

ونحن نتحدث عن لغة الزهور.. وألوانها.. وأنواعها.. لكننا نتعامل معها بالكيلو.. بالكبشة.. فأغلى الزهور هى أفضلها بالنسبة لنا.. لا نؤمن بأن زهرة واحدة تكفى..نرسلها لمن نحب ولمن نجامل بالتليفون مثل تلغرافات التعزية.. فلا نحن قد انفعلنا بالزهور.. ولا نحن حزنا ونحن ندعو للفقيد بالرحمة ولأهله بالصبر والسلوان.

فى اليابان يعرفون كيف يحترمون الزهور.. كيف يتعاملون معها.. كيف ينسقونها ويدللونها.. إنها جزء من حياتهم وسر من أسرار اندماجهم فى الكون.. يسمونه الإيكيبانا.. وهو فن له أصول ومدارس.. إنهم يدرسون اتجاهات الأغصان والزهور والأوراق.. وتوازنها طولا وحجما.. وعلاقة ذلك كله بالضوء.. ونوع الفازة.. «إن الجمال متوافر بكثرة حولك فى كل شىء.. عليك فقط أن تنظر بدقة حتى تحصل عليه».. والمعنى..أن العيب والقبح ليس فيما حولنا، ولكن فى عيوننا وفى نفوسنا.. وعلينا أن نجعل داخلنا جميلا حتى يكون ما حولنا كذلك إننا نقول إن الحياة مدرسة تعملنا، وهم يقولون إن الحياة فى حاجة إلى مدرسة أو مدارس لنتعلمها.. لنتعلم فنونها.. وفى الغرب مدارس لتعليم الحب والاستحمام ومعالجة المشاكل العاطفية والزوجية.. ومدارس لرعاية الكلاب والقطط والجياد.. ومدارس لفهم لغة الجسد ولغة الإشارات ولغة الطيور.. وفى اليابان مدارس الشاى والزهور واليوجا والمساج.. وهناك أيضا مدرسة للكومينو.. الزى الوطنى.

لم أجد ما يمنع من زيارة هذه المدرسة وإن اعترتنى الدهشة لوجود مدرسة تعلم المرأة اليابانية كيف ترتدى الزى الوطنى المشهورة به.. إن الكومينو فى اليابان مثل الأهرام فى مصر، وبرج إيفل فى فرنسا، وتمثال الحرية فى أمريكا، وبرج بيزا فى إيطاليا.. العلاقة المميزة للدولة.. فهل جاء اليوم على اليابان لتحافظ على علامتها المميزة بتعليمها فى مدارس خاصة؟

المدرسة تقع فى شقة فى عمارة فى حى شينشجو بطوكيو واسمها شيزوبجانوما ومديرتها تاكى كور قالت لى:

- لم يعد غريبا أن تنتشر فى اليابان مدارس لتعليم الكومينو.. فالملابس الأوربية أصبحت هى السائدة.. وهى الأرخص.. كما أن المرأة اليابانية لم تعد ترتدى الكومينو إلا فى حفلات أو مناسبات محدودة مثل الزواج أو الوفاة أو بلوغ سن الرشد.

ويحتاج تعلم لبس الكومينو إلى سنتين على الأقل.. وهناك نوع منه لكل مناسبة.. ولكل سن.. وحسب الحالة الاجتماعية.. والأسود هو اللون الرسمى.. والمرأة المتزوجة لها الحق فى ارتداء كومينو بنصف كم.. أما الفتاة فليس لها هذا الحق.. ويوضع رمز العائلة على الكومينو فى ٥ أماكن.. عند الكتفين.. وفى الظهر.. وعند الكمين.. ورمز العائلة على كومينو الرجل أكبر وأوضح من رمز العائلة على كومينو لمرآة.. نوع آخر من التمييز بينهما.

ويستهلك الكومينو ١٢ مترا من القماش.. وسعره قد يصل إلى ١٠ ملايين ين..حسب القماش وجودته.. لذلك فالجينز أرخص وأسهل.. لكن.. الرجال يفضلون المرأة التى ترتدى الكومينو على التى ترتدى الملابس الأوروبية.. فهم يرونها أكثر طواعية.

ومع الكومينو لابد من حزام حول الوسط.. طوله ٤ أمتار.. ينتهى بعقدة عند الظهر.. والعقدة قد تأخذ شكل وردة أو فراشة.. ومع الكومبنو مروحة.. تختلف حسب اللون والمناسبة.

إنها مسألة معقدة جدا.. لكنه الصبر الذى أتقنه اليابانيون وجعلهم فى حالة دأب دائم.. وأى حالة أدب دائم لا تخلو من العناد والإصرار.

أعتقد أنك ستوافقنى على ذلك كله.. لكنك لن توافقنى على الذهاب معا إلى مسرح الكابوكى.. ستصرخ : كابوكى.. تانى.. فتجربة الكابوكى مع المصريين فى افتتاح الأوبرا.. أو المركز الثقافى القومى لم تكن على ما يرام.. وقد تحول العرض إلى سخرية.. وتحولت السخرية إلى نكتة.. وتحولت النكتة إلى عقدة.. عقدة تمنيت أن أتخلص منها.. وكلفنى ذلك حوالى ٢٠٠ دولار فتذكرة مسرح الكابوكى غالية جدا.. ولابد من الحجز قبل أسبوع على الأقل مقدما.. كان لابد أن أفهم سر الكابوكى الذى لم نستوعبه وجعلناه رمزا لإفزاع الأطفال... مع أننا لا نفهم الأوبرا.. ولا نفهم البالية ولا نسخر من هذه الفنون.

السر هو أننا لم نقرأ المطبوعات الملونة التى وزعوها علينا وفيها شرح للكابوكى وملخصات لما سنراه من قصص وأساطير.. ولو كانوا قد قرأوا ذلك علينا لفهمنا.. فمن النادر أن يقرأ أحد فى مسرح أو سينما ما يقدم له من مطبوعات.. عادة مصرية .. حضارة قائمة على السمع.. لذلك فقد اشتريت فى مدخل المسرح كتيبا عن العرض الذى يستغرق أكثر من ساعتين واستأجرت جهازا للترجمة الفورية.. ورحت أتابع ما يعرض أمامى وصدقنى لم أشعر بالملل.. بل إننى اكتشفت أن إحدى اللغات التى نسمع بها

الترجمة هى اللغة اليابانية.. فلغة العرض لغة يابانية قديمة جدا لم يعد يستوعبها أحد الآن بدون ترجمة.

والكابوكى هو المسرح الشعبى.. مثله مثل التراث الشعبى المصرى الذى يتحدث عن شجاعة (أبو زيد الهلالى) ويتحدث عن الشرف فى (ياسين وبهية)، ويتحدث عن الخيانة فى (أدهم الشرقاوى)..وفى الكابوكى يتحدثون عن الشجاعة والغدر والحب والهجر والخيانة أيضا..وهناك راو يفتح الستار عليه.. ثم يقطع السرد بمشاهد تمثيلية يؤديها ممثلون رجال فقط حتى أدوار النساء أيضا.. فممنوع على المرأة التمثيل حفاظا على الأخلاق العامة حسب قرار صدر فى عام ١٩٢٩ ومازال ساريا حتى الآن وسط ديكور مبهر صارخ الألوان يحصل من يقوم به على الأجر المرتفع والتقدير والإعجاب.. أما الممثلون فهم يتوارثون المهنة ويحتفظون بها فى عائلات معينة لا يخرج عنها هذا الفن الخالص والخاص.

لن أقنعك بالفرجة .. لن اقنعك بأننى استمتعت دون ضجر أو ملل.. وليس السبب فقط هو ما قلت.. ولكن هناك سببا أهم هو أنك عندما تعيش.. على الطريقة اليابانية.. وتؤمن بسكينة النفس.. والتأمل.. وعدم السربعة.. فستجد نفسك تعشق الكابوكى.. لا شىء ينفصل عما حوله.. فنحن منظومة واحدة.. وعندما تكون المنظومة التى تعيشها الآن من عينة البيتزا فكيف يمكن أن نستوعب الكابوكى.. لابد أن نستوعب توم آند جيرى ■

١١

الإخوان المسلمون في اليابان!

قليلة جـــدا الأيام غير العادية فى حـياة الإنسان.. يـوم.. أ و نصف يوم.. أو ساعات.. وربما دقائق.. لكنها دقائق يخلع فيها الإنسان ملابسه التنكرية قيوده الاجتماعية.. ويمسح الماكياج والأصباغ والألوان عن وجهه ولسانه.. ويخرج من قفصه البشرى الأصعب من الصلب ليمارس حريته.. أو جنونه.. يقول مايشاء.. يحب من يشاء.. وربما يقتل من يشاء.. إن لحظة واحدة من تلك اللحظات

النادرة، المتهورة، غير العادية قد تكلف الإنسان الكثير..
وقد تكلف الإنسانية ماهو أكثر.

خارج مدينة طوكيو.. بالقرب من جبل فوجي الشهير.. في قرية لا وجود لها على الخريطة اسمها كامكيو أشيكى، شعر متطرف يابانى أصبح اسمه مثل الطبل فيما بعد أن الإنسان ليس حرا كما يتصور.. لكنه يدعى الحرية.. إنه ليس حرا حتى فى علاقاته مع يديه وشفتيه وثيابه وكلامه وحواره اليومى. فقرر أن يمارس جنونه، فاختطف هو وجماعته فتاة صغيرة، واغتصبوها.. وبعد أن نزعوا أسنانهم من لحمها ورائحتهم من مسام جلدها، قتلوها.. وضعوا كل خطايا الشيطان فى أحشائها.. وأحرقوا عظامها.. وقدموا الرماد قربانا للآلهة حتى ترضى عنهم وتهدأ.

إنه « أساهرا» الذى أصبح حديث الدنيا بعد أن وضعت جماعته الدينية المتطرفة الغاز السام فى محطات المترو ليختنق الناس وتخرج منهم الأرواح الشريرة.. لقد ذكرنى أساهرا بشكرى مصطفى الذى خرج من عباءة وعنبر الإخوان المسلمين فى ليمان طره إلى كهوف الجبال فى الصعيد ليؤسس تنظيمه المعزول عن المجتمع.. التنظيم الذى عرف بتنظيم التكفير والهجرة، واختلط فيه الجنس بالدم، واختلطت فيه الحياة الخاصة باغتيالات الشخصيات العامة.

أما تنظيم التكفير والهجرة على الطريقة اليابانية الذى أسسه أساهرا فاسمه «أومو شيندكو» وقد بدأ فى الجبل أيضا.. وبتكفير المجتمع والعزلة عنه كذلك.. طالب أتباعه ذويهم ببيع الأراضى التى يملكونها والتبرع بثمنها

فى سبيل الله.. وعندما رفضوا التبرع، ضربوهم وكادوا أن يقتلوهم.. إنه نفس التجاوز الذى تمارسه التنظيمات المتطرفة فى بلادنا مع أقرب الناس إليها.

وقد تجاوزت جماعة أوموشيندكو الحدود.. خطفوا محاميا رفض مساعدتهم.. اختفى المحامى وأسرته من بيته ليلا.. وبعد ٣ سنوات وجدوا جثته محترقة بعد أن خنقت بالغاز.

وقامت الجماعة بهجوم بالغاز على القضاة لأنهم لايحكمون بشرع الآلهة.. لكن الريح أخذت الغاز بعيدا عن مقر القضاة.. فلم يُكتشف أمر العملية إلا فيما بعد.. عندما قُبض على أفراد الجماعة واعترفوا.

ثم.. جاء حادث الغاز فى المترو الذى كشفهم.. لقد وضعوا سائلا فى كيس من البلاستيك الرقيق ملفوفا فى ورق جرائد.. تركا واحدا منهم يغرز فى الكيس آلة حادة ليخرج السائل إلى الهواء، ويتفاعل معه، وهو تفاعل ينتج غازا ساما.. وقد حدث ذلك فى محطة المترو القريبة من مبنى وزارة الخارجية.. حيث أمسك موظف بوزارة الخارجية تصادف وجوده بكيس السائل وهو يتفاعل مع الهواء وألقى به بعيدا.. فأنقذ عشرات المئات من الناس.. لكنه مات مخنوقا.

إن هذا الحادث الذى لفت الأنظار جعلنى أتساءل عن أسباب التطرف الدينى فى مجتمع مثل اليابان.. متسامح دينيا.. لايرفض الجمع بين الأديان.. لايعرف التعصب.. لايعانى من الفقر والخرافة والكبت وسطوة رجال الدين، وهى الأسباب التى تصورنا أنها وراء التطرف الدينى والعنف والقتل باسم الله فى بلادنا!

هل لابد من التطرف مهما اختلفت المجتمعات؟.. لماذا يعتقد البعض أن الله لايقبل سوى الدم؟.. لماذا لانبوس يدا الله.. ونبوس القمر والكواكب واحدا واحدا.. والجبال والأودية.. دليلا على نعمة السماء؟.. لماذا العنف مهما كان الواقع حسنا؟.

في نادى الصحافة اليابانية طرحت هذه الأسئلة وغيرها على أستاذ جامعي هادئ، متخصص في الإرهاب والتطرف والعنف الديني، ويؤخذ رأيه في هذه القضايا الحرجة، هو د. أكيرا أنوكي.. وهو مثلي يحب القهوة السوداء الخالية من السكر.. ويفضل أن يفكر ويتكلم وهو يدخن.. هو متواضع.. لايهتم بأناقته، ويمسك بحقيبة قديمة، منتفخة بالكتب والمراجع والأوراق وقصاصات الصحف.

المكان الذى نجلس فيه يتسم بالأناقة.. وهو أفخم من أى فندق أو مطعم أو كافتيريا أو بار في طوكيو.. وهو مصمم على طريقة نادى الصحافة في واشنطن.. وسواء في طوكيو أو واشنطن فإن نادى الصحافة واحد من أهم وأخطر مراكز القوة.. والحاكم الأجنبي الذى يزوره ويتحاور على مائدة الطعام مع أعضائه هو حاكم له بصمة سياسية تتجاوز حدود بلاده.

لم يتردد د. أكيرا أنوكي في الدخول في الموضوع مباشرة.. وألقى في وجهي بقنبلة جعلت الحوار معه مثيرا منذ اللحظة الأولى.

قال:

ـــ كنت أتحدث مع خبراء مكافحة الإرهاب في البوليس الياباني اتفقت معهم على أن حالات العنف الدينية سوف تزداد في بلادنا.. وفي بلادكم..

وفى بلاد أخرى.. فعندما تسقط الأيولوجيات السياسية والقومية لا مفر من العودة إلى الدين..

والدين مطاط يمنح المتصوف التوازن النفسى، ويمنح المتطرف العنف الشخصى.

لقد كان العنف ـــ من قبل وحتى وقت قريب ـــ يساريا.. كان هدف العنف اليسارى.. الذى سقط بسقوط الاتحاد السوفيتى.. اختطاف سلطة الدولة بالقوة، مستخدما أيديولوجية ماركسية، فى مواجهة سلطة رأسمالية، يمينية.. أما الآن فالعنف الدينى هو نوع من التطرف اليمينى فى مواجهة سلطة يمينة، لايختلف معها سياسيا أو اقتصاديا، ولكنه يريد إسقاطها والاستيلاء عليها بالقوة بدعوى أخطر.. إنها غير متدينة.. أو أنها غير متدينة.. أو أنها فاسقة.

■ د. أنوكى هل تقصد بالعنف اليسارى منظمة الألوية الحمراء اليابانية.. مثلا؟

ـــ نعم.. قد تعاونت مع بعض الفصائل الفلسطينية المتشددة وقفت معها ضد إسرائيل على نفس الأيديولوجية اليسارية.. وقد سقطت هذه الأيديولوجية الآن.. وبدأ الفلسططينيون يسعون لإقامة دولة لهم بالمفاوضات، وفشلوا فى ذلك بسبب الصدام بين دولتهم القومية التى يحلمون بها وبين الدولة الدينية اليهودية الإسرائيلية.. إن هناك من يقول إن نمط الدولة القومية على الطريقة الغربية لم يعد ملائما للفلسطينيين الآن.. لقد قرأت ذلك فى مقال نشرته مجلة «سيكاى» أو «العالم» اليابانية، وقمت بترجمته.. كما أن

المفكر الفلسطيني الأمريكي اللامع إدوار سعيد يقول في كتابه «الاستشراق» إن المسلمين في الشرق الأوسط لم يعودوا يقبلون القيم الغربية. هذا هو تفسير القلق في الشرق الأوسط، وسر العنف الديني.. ومثل هذا التفكير أصبح يسيطر على اليابانيين.. الخوف من القيم الغربية والرغبة في التخلص منها.. إن اليابان الحديثة دولة قامت على النمط الغربي ونجحت وازدهرت.. ولكنها الآن تشعر بضياع هويتها.. وتخاف على ماتبقى من ملامحها.. لذلك بدأت حركات التطرف الديني تفرض نفسها من جديد.. وأعتقد أن هذا السبب أيضا هو مايفسر ازدهار التطرف الديني في مصر والشرق الأوسط.

إن مذهب أوموشيندكو ليس مهما في حد ذاته.. ولكنه سيغرى بالتطرف الديني البوذي، الذي نتوقع أن يحدث قريبا جدا.. وتقول الصحف إن الروس يدعمون التطرف البوذي في التبت.. وتقول الصحف إن الروس هم الذين قدموا السلاح لجماعة أوموشيندكو.. وهذا يثير الدهشة.. لأن روسيا دولة تعاني الآن من الأصولية المسيحية، فهل تريد استخدام التطرف الديني في الصراع السياسي بينها وبين اليابان؟.. ربما.. لكن الأهم من الروس ومن غيرهم هو أن الناس في اليابان لم تعد تؤمن بحل مشاكلها الاجتماعية والإنسانية بطريقة الغرب البرجماتية.. من ثم ليس أمامهم سوى البحث عن حلول لهذه المشاكل في المعابد والكتب الدينية.. وهذا هو الخطر الحقيقي.

■ بهذا المفهوم لايمكن اعتبار المتطرفين قتلة بالمفهوم الجنائي؟

ـــ عندما قتل أنصار جماعة أوموشيندكو ضحاياهم استخدموا فعل «بواه» أي فعل يقتل.. و«بواه» لايعني القتل من أجل القتل إنما يعني

القتل لتخليص الروح من عذابها لتولد روح جديدة.. وهم يقولون إنهم لايقتلون وإنما يخلصون الإنسان من جسده النجس ليولد من جديد فى جسد آخر، فى عصر آخر أكثر براءة وأكثر نقاء من العصر الذى يعيشون فيه.

■ إنها فلسفة خطرة، مغرية بالقتل، ومغرية بتوسيع دائرة أنصارها.. أليس كذلك؟

ــ نعم.. فهؤلاء الناس يدعون للخلاص الفردى المباشر.. والعاجل.. وهم يعتبرون باقى المذاهب الدينية سيئة لأنها تظل تعذب روح الإنسان ولاتسعى لتخليصها مما هى فيه إلا نهاية العالم.. فى يوم القيامة!

■ إن كل فلسفة دينية متطرفة يجب أن تُفهم جيدا.. ولايجب التعامل مع أنصارها على أنهم مجرد قتلة.. يسعون للسلطة.. ففى الإسلام يحلمون بالاستشهاد.. وفى المسيحية يطالبون بالزهد والرهبنة والخلاص من الخطيئة.. وفى أومو شيندكو ــ كما تقول ــ يطهرون الروح المعذبة بقتل صاحبها.

ــ لكن.. لابد أن تكن إلى جانب هذه الفلسفة الخطرة أسباب اجتماعية نفسية.. إن الفقراء فى العالم الإسلامى هم الأكثر تطرفا.. فى اليابان تمييز عنصرى جذوره قديمة.. إن أساهرا زعيم أمو شيندكو من البوراكومين.. وهم جماعة من أصول كورية يعاملهم الناس فى اليابان معاملة تخلو من الاحترام ولاتخلو من الازدراء... وبالتأكيد كان إحساس أساهرا بالدونية أهم سبب دفعه للتطرف الدينى.

ماقاله د. أنوكى يحتاج لمزيد من الشرح والتفسير.. إن الشعب اليابانى فى الأصل شعب منغولى.. والشبه بينه وبين جيرانه فى القارة الآسيوية

المجاورة شبه كبير.. إن التمييز بين اليابانيين والكوريين والصينيين يحتاج لبعض الخبرة.، لايمكن أن تفرق بينهم بسهولة.. وللوهلة الأولى.. كما أن التشابه يمتد إلى الطابع المعمارى.. والدينى.. يمتد إلى الطعام والأساطير.. لكن الشعب اليابانى يعتقد أنه متجانس عرقيا.. فهو لم يختلط بالأجانب لمدة ألف سنة على الأقل.. وساعده على ذلك عزلته فى الجزر.. ولاجدال أن الإحساس بنقاء الدم والعرق جعل الشعب اليابانى يشعر بالاختلاف والتميز.. يشعر أحيانا بعقدة الشعب الألمانى بأنه فوق الجميع.

وفى كتاب أدوين رايشاور «اليابانيون»: إن الفتوحات التى قامت بها الإمبراطورية اليابانية فى العصور الحديثة، فضلا عن تجارتها الدولية الواسعة، أدت إلى اجتذاب بعض الأجانب إلى الجزر اليابانية فى الأحقاب المتأخرة. ورغم وجود تلك الأعداد من الأجانب إلا أن الجالية الكورية فقط هى الجالية الوحيدة التى لها وزن بين الجاليات الأجنبية التى تعيش فى اليابان ويبلغ تعدادها ٦٠٠ ألف معظمهم من الكوريين الذين نقلتهم اليابان بأعداد كبيرة أثناء احتلالها لكوريا خلال الحرب العالمية الثانية لكى يحلوا محل اليابانيين المجندين فى ذلك الوقت.. ولاتزال الجالية الكورية تشكل إحدى المشاكل العرقية.. كما أن أفرادها يعانون من التمييز.

وفى مدينة كيوتو شاهدت تمثالا لأذن بشرية.. والأدق أن أقول إنها إذن كورية.. ففى الحروب القديمة كان اليابانيون يقطعون آذان الكوريين ويقدمونها للإمبراطور دليلا على حجم خسائر الكوريين من القتلة ولتقدير المكافأة.. وقد أقام الكوريون هذا النصب التذكارى لهم ولايكفون عن زياراته.. فلا أحد يريد أن ينسى.. ولاأحد يريد أن يكفى على الماضى

ماجورا.. فهل تذكر أساهرا هذا الماضى فاسترد إحساسه بالانتقام.. أم أن إحساسه بأنه من جماعة أقل قيمة جعله يشعر بالتعالى مستخدما الدين ليقول إنه الأرقى والأقوى؟

إنه من المنبوذين.. والمحتقرين.. الذين يعنفون فى جريمة أكبر.. أو فى جماعة يرفضها اليابانيون وكأنها جرب.. أو جذام.. جماعة البوراكومين.. وهم يمثلون ٢٪ من السكان.. بقوا من عصر الإقطاع.. جاءوا من أصول متعددة مثل أسرى الحرب الذين كانوا يقومون بأعمال حقيرة.. مثل دبغ الجلود.. والجزارة.. لأن البوذية تحرم ذبح الحيوان.. من يذبح الحيوان يحتقرونه.. لكن من يذبح الإنسان فى الحروب يعد من النخبة العسكرية التى تحصل على النياشين والأوسمة والمناصب الرفيعة.

ورغم حصول البوراكومين على المساواة الكاملة فى الحقوق القانونية منذ أكثر من قرن من الزمان إلا أن تعصب المجتمع اليابانى ضدهم مازال قائما وبدرجة كبيرة من التطرف.. وحسب ماقاله أدوين رايشاور فإن البوراكومين لايختلفون عن بقية اليابانيين فى هيئتهم الجسمانية، ولايوجد بينهم تنافر ثقافى وحضارى فيما عدا وضعهم الاجتماعى الذى لايحظى باحترام اليابانيين. ومع ذلك نجد اليابانيين يحرصون أشد الحرص على كشف شجرة العائلة التى ينحدرون منها لضمان عدم زواج أبنائهم من هؤلاء البوراكومين. ومن جهة أخرى نجد هؤلاء البوراكومين الذين يعيشون فى اليابان.. التى بلغت شأنا عظيما فى التحضر والمدنية.. يبذلون أقصى مايستطيعون لإذابة الفوارق لتى تمكن اليابانيين من التعرف عليهم.

إن هذا التمييز المؤلم هو ماجعل أساهرا متطرفا هو ماجعله يدعو إلى الخلاص الفردى فى مجتمع يؤمن بالحياة الجماعية.. هو ماجعله نموذجا يتبعه كل من يشعر بالسخط والتمزق وعدم التكيف مع المجتمع.. وهؤلاء الساخطون هم وقود التطرف الدينى ونيرانه فى كل بلاد الدنيا مهما كانت الفوارق بينها.. من اليابان إلى لبنان.. من الولايات المتحدة الأمريكية إلى دول أوروبا الشرقية الغربية.. من مصر والسودان إلى باكستان وأفغانستان.. فالتطرف هو تذكرة بلا عودة، فى اتجاه واحد لكل من يعيش بعيدا.. بعيدا.. على الهوامش.

نعود لدكتور أنوكى.. إنه يقول:

ـــ أنا غير متفائل.. فسيزداد عدد الساخطين على المجتمع الذين لايجدون سوى الله يلجأون إليه، ويفسرون تعاليمه على هواهم الساخن الذى لايرضى إلا بالقتل والخنق والحرق.

■ إذا كنت غير متفائل فى مجتمع ثرى، يحقق الرخاء والوفرة لأبنائه مثل اليابان.. فكيف يكون حالك لو كنت فى مجتمع متواضع الحال، يعانى أبناؤه من الفوارق الاجتماعية والمالية والنفسية مثل مصر؟

ـــ الأزمة ليست فى هذه المظاهر.. الأزمة أن الدولة القومية على النمط الغربى لم تعد تجد من يساندها.. فكرة هذا الطراز من الدولة أصبحت ضعيفة جدا.. هذه الدولة عاجزة الآن عن تحقيق الأمان والاستقرار والمساواة.. وتسيطر عليها فى كثير من الأحيان عصابات من المسئولين لايسعون إلا لتحقيق مصالحهم الخاصة.. ولايهمهم أن تنهار فوق رؤوس

الناس.. فهم سيتركون الحرائق والخراب وراءهم ويسافرون إلى أى مكان فى العالم.. يعيشون فيه.. ولنذهب نحن إلى الجحيم.

■ ولنذهب نحن إلى الجحيم!

ـــ من هذا الفشل تنبع الأفكار الدينية المتطرفة.. تنبع من إحساس الناس بعدم القبول.. إن الدين يطفو فوق السطح عندما تعجز السياسة فى تحقيق أهدافها. ولو كانت جماعة أوموسيندكو قد عبرت عن نفسها بقسوة فإن جماعات وتيارات دينية أخرى عبرت عن نفسها من خلال الانتخابات العامة في محاولة لإسقاط النظام السياسى القائم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بنفس وسائله وأساليبه.. إن أكبر تيار دينى فى اليابان هو سوكا جاكاى خارج من البوذية وقد صوت أتباعه وعددهم ٦ ملايين شخص فى الانتخابات العامة الأخيرة كنوع من استعراض القوة.. ولو كان لهم مرشح لفاز فى الانتخابات.. ولأن الطرف الآخر لن يقبل الهزيمة فإن الصدام بين التيار السياسي والتيار الدينى سيحدث.. سيحدث.

■ إن هذا الصدام قد حدث فى بلادنا بين سلطة الدولة التقليدية وجماعات الإسلام السياسى وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين.. إنه صدام شرس تجده فى الانتخابات والمطبوعات والمنشورات والشائعات من جانب الإخوان وتجده فى قوة الأمن والمحاكمات من جانب الإخوان وتجده فى قوة الأمن والمحاكمات من جانب الدولة، وهو صدام مبكر، سبقنا به اليابان بربع قرن على الأقل، بسبب قوة تأثير الدين من ناحية، ولأن الفقراء يسبقون الأغنياء فى الفوضى والاضطرابات والعنف من ناحية أخرى.

ـــ مهما اختلف التوقيت، ومهما اختلفت الأعراض، فالفيروس واحد.. لقد دعونا خبراء من الولايات المتحدة وبريطانيا فى ندوة عن الإرهاب أقيمت فى طوكيو.. ولاحظنا أنهم لم يستغربوا من وجود التطرف بل استغربوا من أساليبه اليابانية وهو استخدام الغاز السام المعروف بغاز سارين.. وهذا مايجعلنى أسألك.. ألم يثر القتل بالغاز دهشتكم؟

■ نعم.. لأن التطرف الدينى فى بلادنا يستخدم عادة الرصاص فى تدبير الاغتيالات السياسية للوزراء والكتاب.. وأحيانا كان يلجأ إلى العبوات الناسفة التى تهدد جماعة من الناس يتصادف وجودهم فى مكان العبوة..ولكنه تهديد محدود التأثير إذا ماقورن بخنق الناس فى محطات المترو بالغاز.. وقد تصورنا أن هذا الأسلوب نابع من الحضارة الآسيوية التى تجبر الناس على الانتحار الجماعى فى حالات الفشل والهزائم.. كما أننا تصورنا أن الغاز يناسب دولة متقدمة تكنولوجيا مثل اليابان.

ـــ هل تشرح تفسيرك أكثر؟

■ أقصد أن أساهرا أحس بأن اليابانيين الذين تركوا جذورهم واندمجوا فى الحضارة الغربية قد ارتكبوا خطأ.. والمخطئ فى الحضارة الآسيوية يجب أن ينتحر.. أو يجبر على الانتحار.. فكان أن قرر أن يموتوا بالغاز موتا جماعيا.

ـــ اسمح لى أن أسجل هذا التفسير لأنه لم يخطر على بالنا.

■ يبدو أنكم نسيتم جذوركم الآسيوية بالفعل.

ـــ عندما تكون فى أزمة فإن الآخرين هم أقدر منك على التفسير والشرح والتقدير.

■ عندك حق.

ـــ أيضا فى الندوة الخاصة بالإرهاب كان هناك شبه إجماع على أن الإرهاب الجديد فى العالم سيعتمد على الدين.. ليس فقط فى اليابان وإنما فى كافة أنحاء العالم.. وأن هناك علاقة بين عنف الأوموشيندكو فى اليابان، والميليشيات الأمريكية التى فجرت مبنى أوكلاهو ماسيتى.

■ وأعتقد أن العلاقة تمتد إلى جماعات العنف الدينية فى مصر وأفغانستان والسعودية وإسرائيل.. فالقتل باسم الله أصبح شعار كل الأديان.. من الإسلام إلى البوذية.. ومن اليهودية إلى الشنتوية.. ولكن.. ما الذى يجمع كل هذه الأديان فى سلة واحدة؟

ـــ النظام الدولى الجديد؟

■ كيف؟

ـــ إن هذا النظام اليمينى لم يسقط اليسار فقط وإنما أسقط القيم المحلية أيضا. لقد دمرت على سبيل المثال القيم اليابانية التقليدية تدميرا شاملا ولاأحد يعرف كيف يمكن خلق أن تكوين قيم جديدة محتلفة عن القيم الغربية السائدة.. إن هذه الثغرة هى التى ينفذ منها الأصوليون وأنصار الإحياء الدينى.. إنهم يرون أن الفرصة سانحة لتدمير السلطة القائمة بعد أن فشلت فى خلق منظومة جديدة للقيم.. وهم يلجأون إلى الدين وإلى السلاح.. وربما سينجحون فى الهدم لكنهم سيعجزون عن البديل.. سوف تستمر حالة الفوضى بعض الوقت لتخرج عنها قيم جديدة ودولة جديدة وسلطة جديدة.

انتهى كلام د. أنوكى.

ولم أجد ماأضيف.. فأنا أميل إلى تحليله.. ثم إنه واحد من الذين نذروا حياتهم لتفسير أمراض المجتمع وظواهره الشاذة، ويعرف كيف يقارن بين مايجرى فى بلاده ومايجرى فى باقى بلاد العالم، وهو لايتحدث كأستاذ يعرف كل شئ وإنما يأخذ من الآخرين ويعطيهم، يسمع منهم قبل أن يقول ماعنده.

وقد استغرق حوارنا ساعتين و٤٠ سيجارة و٨ فناجين قهوة وأتصور أن الطبيعة تدخلت بعنف فى وضع نهايته.. فرذاذ المطر الذى بدأ مع شروق الشمس سرعان ماتحول إلى سيول، والرياح الخفيفة التى تحملناها فى الصباح أصبحت عواصف شرسة تقلع الأشجار، وتطير البشر، وتغرق القوارب الصغيرة فى البحار.

لقد وقع التيفون فى ذلك اليوم وراح يزداد عنفا ونحن نتحدث عن العنف.. والتيفون هو الإعصار الذى يأتى فى نهاية الصيف لكنه جاء هذا الصيف فى بداية الحر والرطوبة.. إنها الطبيعة التى قد تأتى بدون إنذار وتبتلع أى تحليل أو تفسير يتوصل إليه الإنسان.. بل إنها قد تبتلع الإنسان نفسه ■

الفهرس

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٣٠٩ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5986 - 7

رحلة إلى عين الشمس

دولة يوم القيامة

عادل حمودة هو واحد من أشهر الكتاب السياسين فى مصر والعالم العربى وله مؤلفات عديدة فى السياسة والدراسات التاريخية وفى نفس الوقت هو حائز لجائزة الدولة فى آداب الرحلات وهو ما يضاعف من قيمة هذا الكتاب الذى يجمع بين خبرته السياسية وموهبته فى آداب الرحلات.

وقد تخرج عادل حمودة من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وتولى مسئولية تحرير مجلة روز اليوسف لمدة ٦ سنوات وفجر العديد من القضايا الهامة التى نالت الاهتمام الجماهيرى والتأييد القضائى.

وهو كاتب يجمع بين المعلومة المباغتة والصياغة الجذابة وهو يسافر إلى كافة انحاء العالم دون ان يبعد نظره عن وطنه .. مصر.

٥٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب